«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: نَظْرَةٌ شَامِلَةٌ

٧-١) مَدْخَل:

إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ بأنّ «مُشْكِلَ النّهْضة» عند العرب: (يجدُ مَصْدَرَهُ ومُكَوِّناته في التَّنَاقُضِ الذي يُمَيِّزُ الوَضْعَ العربيّ الرّاهِن: التّنَاقُض بين مَظَاهِرِ الحضارة الحديثة كما يعيشونُها على مُسْتوى الاسْتِهْلاك، وبين مَظَاهِرِ التَّخَلُّف كما يُعَانُونَهَا على مُسْتوى الإنْتاج والسُّلُوك والفِكْر)[١]، فإنّ مِثْلَ هذا التّنَاقُضِ القَائِم يَحْتَاجُ إلى «لُغَةٍ» تَسْتطيعُ أنْ تُقَلِّصَ من مِساحاته، وتُحَاصِرَهُ في مَواقِعه، وتُفَكِّكَ عُقَدَهُ وتشابُكاته. ومن المُهِمّ أنْ تكون تلك «اللّغة» مُنْبَثِقَةً عن طبيعة المُشْكِل، ومُنْسَجِمَةً مع عناصره، ولأنّ هذه العناصرَ والمُقَوِّمَاتِ في زماننا هي - في المقام الأوّل - مُسْتَمَدَّةٌ من طبيعة «الحركة العِلْميّة - التّقْنيّة» وتفاعُلاتها، فإنّنا لا نَسْتطيعُ أنْ نجد «لُغَةً» أكْثر فَاعِليّةً وتَأْثيراً من «لُغَةِ العلوم والتّقْنية» المُتَمَثِّلَةِ - فِكْريّاً وثقافيّاً وعمليّاً - في «الثَّقافة العِلْميّة». وأمّا مالك بن نبيّ فإنّه - بعد مُعالَجَةٍ عميقةٍ لأوضاع «النَّهْضَةِ العربيّة» - يَخْلُصُ إلى: (أنّ ثقافة نَهْضتنا لم تُنْتِجْ سوى حِرَفيِّين مُنْبَتِّين في صُفُوفِ شَعْبٍ أُمّيّ)[٢]، ويجب أنْ نَأْخُذَ «الأُمّيّة» هنا بكُلِّ أشْكَالِهَا؛ فـ«الأُمّيّة الأَبْجَدِيّة» المَعْهُودَةُ آفَةٌ ما زالتْ تُلْقِي بظِلالِهَا القاتمة على قطاعاتٍ وَاسِعَةٍ في «المُجْتمعات العربيّة»، ولكنّ «الأُمّيّة العِلْميّة» أدْهَى وأَمَرّ، فهي تَنْتَشِرُ بين غَالِبيّة القطاعات من كُلِّ الشّرائح المُتَعَلِّمَةِ والمُثَقَّفَة، وهي المُعَوِّقُ الأوّلُ المُنْتَصِبُ أمام «التَّفَاعُلِ الثّقافيّ» اللّازم لتَحْقيقِ «شُرُوط التّنْمية». وفي هذا السِّيَاقِ، نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَتَحَرَّكُ في فَرَاغٍ، ولكنّها كما يقولُ دافيد رزنيك (David B. Resnik)[٩٨]: (مُجْتمعٌ يَجْرِي دَاخِلَ مُجْتمع)، وهي: (تَجْعَلُ العُلماء في

تفاعُلٍ مُباشِرٍ بالمُجْتمع على اتِّسَاعِه)؛ وهذا يَعْنِي أنّ نجاح هذه الحركة، يَتَطَلَّبُ مُجْتمعاً قَادِراً على اسْتيعابِها، وامْتصاصِ مُعطياتِها، والتَّجَانُسِ مع مُقْتضياتِها،وتَمَثُّلِ ثقافتِها.

٧-٢) «الثّقافة العِلْميّة»: التَّعْريف والصّنوف:

يُصَاحِبُ مَفْهُومَ «الثقافة العِلْميّة» قَدْرٌ كبيرٌ من الضَّبَابيّة، ويُعَانِي هذا المُصْطلح من درجةٍ عَالِيةٍ من الارْتباك، وليس هذا بغريبٍ على مُصْطلحٍ دخل «الثَّقافة العربيّة» خَجُولاً، وفي مراحِل مُتأخِّرَةٍ، ولم يَحْظَ بعَوامِلِ التَّمْحيصِ والدِّراسة، كما أنّه فَشِلَ في أنْ يَحْتَلَّ مكاناً مُنَاسِباً في الأولويّاتِ الثّقافيّة والتّنْمويّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة في «المُجْتمعات العربيّة». إنّ مُعْظَمَ الطُّرُوحَاتِ المُرْتَبِطَةِ بتَعْريفِ «الثَّقافة العِلْميّة» تَحْصُرُها في أنّها: (جُرْعَاتٌ من المعارِف العِلْميّة والأساسيّة والحديثة للرَّاغبين في الإلْمَام بها)، وهذا التَّعْريفُ يَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة» «مَفْهُوماً كَمِّيّاً»، حيث تَبْقَى مَحْصُورَةً في إطار ثقافة «هلْ تَعْلَمْ؟»، وتَظَلُّ مَحْدُودَةً ببقائِها في «الإطَارِ المَعْلُوماتيّ النَّظَريّ»، وعدم انْتقالِها إلى «الإطَارِ الفِكْريّ» الذي يُحْدِثُ التّفَاعُلَ على أصْعِدَةِ المُمَارَسَاتِ والتّفْكيرِ والتّحْليل. ومن الواضِحِ أنّ مِثْلَ هذا التّعْريف لا يَمْنَحُ «الثَّقافة العلْميّة» الأبْعَادَ المُتَعِدِّدَةَ والرِّياديّةَ في تَشْكيلِ «الثَّقافة التّنْمويّة»؛ لأنّ السُّلُوكَ الاجْتماعيّ، والتَّوَجُّهاتِ الإنْتاجيّة، والقِيَمَ العمليّة، والتَّطَوُّرَ الفِكْريّ؛ كُلُّها تَرْتَبِطُ بعناصرٍ هي أوثق في صِلَتِهَا بالوَعْي الثّقافيّ والاسْتِيعَابِ الفِكْريّ منْها بجَمْعِ المَعْلُوماتِ وتَكْديسِ البيانات، مع أهميّة «الكَمّ» الذي أَشَرْنَا - فيما سَبَقَ - إلى دَوْرِهِ في تَحْقيقِ «التَّحَوُّلاتِ النَّوْعِيّة».

في الوَاقِعِ لا يُوجَدُ في أدبيّاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» ما يُبَرِّرُ حَصْرَ «مَفْهُومِ الثَّقافة العِلْميّة» في «ثقافة المَعْلُومات»، فهناك جُهُودٌ وَاضِحَةٌ ومُتنامِيةٌ لتَرْسيخِ «البُعْدِ الثَّقافيّ والفِكْريّ» بطَرْحِ مَفْهُومِ «العِلْمُ كثقافة» (Science as Culture)، ويَتَجَلَّى هذا التّأكيدُ في قِيام «الجمعيَّة المَلَكيّة البريطانيّة» بإصْدَارِ مجلّةٍ تَحْمِلُ هذا الاسْم في عام ١٩٨٧م، ويرى روبرت هيزن (Robert M. Hazen) أنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» بكُلِّ بساطةٍ هي خليطٌ من المفاهيم والتّاريخ والفلْسفة التي تُسَاعِدُ الفَرْدَ على فَهْمِ القضايا

العِلْميّـة فـي زمننا)[٤٦]. وأمّـا كِتابُ (العِلْمُ لـكُلِّ الأَمْريـكان)[٩٤] فيُقَـرِّرُ أنّ (لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» جَوانِب كثيرة. وهذه تَشْمَلُ التّآلُفَ مـع العَالَمِ الطّبيعيّ واحْتِرَامَ وَحْدَتِه، وإدْرَاكَ بَعْض الطُّـرُقِ المُهِمَّةِ التي تُبَيِّنُ اعْتماد الرّياضيّات والتّقْنيـة والعلوم على بَعْضها بَعْضاً؛ وفَهْمَ بَعْض المفاهيم والمبادئ الأساسيّة للعلوم، وتَأْسيسَ القُدْرَةِ على التّعامُلِ مع طُرُقِ التّفْكيـر العِلْميّة، ومَعْرِفَةَ أنّ العلوم والرّياضيّـات والتّقْنية هي أَنْشطةٌ بشريّة، ومَعْرِفَةَ ما يَعْنيه هذا الأَمْر من نِقَاطِ القُوّةِ والضَّعْف، والقُدْرَةَ على اسْتِخْدَامِ المَعْرِفَةِ العِلْميّة وطُرُقِ التّفْكير لأَغْرَاضٍ شخْصيّةٍ واجْتماعيّة).

وعُمومـاً فـإنّ «مَفْهُوم الثقافة العِلْميّة» فـي مُجْمَلِه لا يَخْرُجُ فـي عناصِره عن أَرْبعة أَوْجُهٍ[٩٩]، هي:

١) المَعْرِفَـةُ العِلْميّـةُ: وهـي مَعْرِفَـةُ الحقائِـق والمفاهيـم والمبـادئ والقوانيـن والفَرْضِيّات والنّظريّات والنَّماذِج العِلْميّة.

٢) الطَّبيعـةُ الاسْتِقْصَائيّةُ للعلوم: وهي تَهْتَـمُّ بالمُمَارَسَةِ الفِكْريّة والعِلْميّة للعلوم، واتِّخَـاذِ القرارات، وإجْـرَاءِ الاخْتبارات، واسْتِخْدَامِ النَّمـاذِجِ والطُّرقِ العِلْميّة مِثْـلَ المُلاحَظَـةِ والقِياسِ والاسْتِـدْلال، وتَدْوينِ المُعْطيـاتِ وتَحْليلِهـا، ونَقْلِ المَعْلُومـاتِ بوسائِل مُتَعَدِّدَةٍ كالكِتابـة والتّخَاطُبِ واسْتِخْـدَامِ الرُّسُومِ البيانيّة والبياناتِ المُصَوَّرةِ وغيرها.

٣) العلـومُ بصفتها طريقة تَفْكير: وهو الجَانِبُ الذي يَكْثُرُ التّركيزُ عليه والمَعْرُوفُ بـ«التَّفْكير العِلْميّ»، فيَتِمُّ هنا التّشْديدُ على مَنْهَجِيّةِ التّفْكيرِ والتّعْليلِ المَنْطقيّ، وأُسُسِ «المَنْهَجِ العِلْميّ»، وأهميّةِ «الطَّبيعة التَّجْريبيّة» في هذا المَنْهَج، والتَّبَحُّرِ فـي «بِنْيَـةِ المَعْرِفَـة العِلْميّة» و«فَلْسَفَـةِ العلـوم»، والتّبَصُّرِ في أَعْمـالِ العُلماء وتجاربهم، و«تاريخ العلـوم» ومساراته، واسْتِخْدَامِ الفَرْضِيّاتِ العِلْميّةِ والتّعْليلِ الاسْتِقْرَائِـيّ والاسْتِنْبَاطِـيّ والعَلاقَـةِ السَّبَبِيَّـة، والحِرْصِ علـى «الموضوعيّة العِلْميّـة» عبْـر القُدْرَةِ على التّمْييـزِ بين البراهين والحقائِق مـن ناحيةٍ، وبين الآراء الانْطباعيّة والطُّرُوحَاتِ الخُرَافيّةِ من ناحيةٍ أُخْرى.

٤) التَّفَاعُـلُ بيـن «العلوم والتّقْنيـة» و«المُجْتمـع»: ويَتَمَثَّلُ هذا المِحْوَرُ فـي إدْرَاكِ تَأْثيـر العلـوم فـي المُجْتمـع والعَلاقَـاتِ المُتداخِلَـةِ بيـن العلـوم والمُجْتمـع والتّقْنيـة، ويتضمَّنُ - أيضاً - فَهْم المِهَـنِ والمَسَائِلِ العِلْميّة المُرْتَبِطَةِ بقضايا المُجْتمع ومُشْكلاتِه.

لقد شَدَّدَتْ العديدُ من تَعْريفات «الثَّقافة العِلْميّة» على اسْتِخْدَام «المعارِف العِلْميّة» فـي أُمُورِ الحياة اليوميّـة، خاصّةٍ فيما يَتَعَلَّقُ بعمليَّتَيْ «اتِّخاذ القـرار» و«حَلِّ المُشْكلات»، ولذا كان لا بُدَّ من اعْتبار «الاسْتِخْدَام الشَّخْصيّ للمعارِف العِلْميّة» أحد مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة العِلْميّـة»، ويُمْكِـنُ اعْتبـارُهُ جُزْءاً من مِحْوَرِ «العلـوم كطريقة تَفْكير». وبشَـكْلٍ أوسع، فإنّ المَضْمُـونَ الأبْـرز في هذا الرُّؤية هـو المَفْهُومُ الـذي أسْمَاهُ روبرت هيـزن[٤٦] «التّرَابُطُ الفِكْريُّ»، حيث يقول: (يَرْتَبِطُ مُجْتمعُنا ارْتباطاً وثيقاً باكْتشافاتِ العِلْم لدرجة أنّها غَالِباً مـا تَلْعَبُ دَوْراً حَاسِماً في تَشْكيلِ «المُنَاخ الفِكْريّ» للحِقْبَة)، وذلك ما دَفَعَهُ لطَرْحِ السُّؤال الاسْتِنْكَارِيّ: (كيـف نَأْمَـلُ أنْ يَتَمَكَّنَ أيُّ شخْصٍ من اسْتِحْسَانِ الخُيُـوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ وراء «الحياة الفِكْريّة» في زمنِه دون فَهْمِ «العِلْمِ» الذي يَسْرِي معها؟!).

فـي هذا الإطَارِ يَنْبَغِي أنْ لا نُهْمِلَ أهميّة «القضايـا الأخْلاقيّة والقِيميّة» التي تُرافِقُ اتِّخاذ القرارات في المسائِل العِلْميّة، والتي تُعَدُّ من المُكَوِّنَاتِ المُهِمّةِ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، ولـذا يَنْبَغِي تَضْمينُها في أَوْجُهِ «الثَّقافة العِلميّـة»، وهي مَشْمُولةٌ - في رأْيي - في مِحْوَرَيْ «التَّفكيـر العِلْمـيّ» و«التَّفَاعُل بين العلـوم والمُجْتمع». وفي هذا السِّيَاقِ يـرى مُؤلِّفو كِتَاب «العِلْـمُ لـكُلِّ الأَمْرِيـكان» أنّ: («العِلْم» في الوَاقِـع هو - في كثيرٍ مـن الجَوانِب - التّطْبيق المَنْهَجـيّ لبعْض القِيَـم الإنْسانيّة ذات التّقْديـر العَالِي مثْل النّزَاهَةِ والمُثَابَـرَةِ والعَدَالَةِ والانْفِتَـاحِ علـى الأفْكَارِ الجديـدة والشّكِّ والخيـال. إنّ العُلماء لم يَخْتَرِعُـوا أيّاً من هذه القِيَـم، وهم ليسوا الوحيدين الذين يَعْتَنِقُونَهَا. لكنّ المجال الوَاسِع للعلوم يَتَضَمَّنُ ويُؤكِّدُ هذه القِيَم، ويُوضِّحُ - بشَكْلٍ مُؤثِّرٍ - مدى أهميّتها لتقدُّم المَعْرِفَةِ البشريّة والازْدهار. لذا فإنّـه إذا دُرِّسَـتْ العلوم على نَحْوٍ فعّالٍ، فـإنّ النتيجة ستُعَزِّزُ مِثْل هـذه التّوَجُّهَاتِ والقِيَمِ الإنْسانيّة المَنْشُودَة)[٩٤].

٧-٢-١) من «المُثقّف عِلْميّاً»؟:

فـي سِيَـاقِ ما سَبَقَ، نَسْتطيـعُ أنْ نقول - بإيجازٍ - إنّ الإنْسـان «المُثقّف عِلْميّاً» هو: (إنْسـانٌ يُـدْرِكُ أنّ العلوم والرياضيّـات والتّقْنية هي مَشْرُوعاتٌ بشريّـةٌ مُسْتقلّةٌ، ولكنّها مُتَدَاخِلَـةٌ ويَتَأثَّرُ بعْضُها ببعْضٍ، وتَحْتَوِي علـى مَوَاطِن قُوّةٍ ومنابِع إلْهَامٍ ومُنْطلقاتِ خيالٍ، ولكنّهـا فـي الوَقْت نفْسه مُقَيَّـدَةٌ ومُنْضَبِطَةٌ وصَارِمَة. إنّـه إنْسانٌ يَفْهَمُ الأفْـكَارَ والأُسُسَ المُهِمّةَ في العلوم، ومُطَّلِعٌ على «العَالَم الطَّبيعيّ»، ويُلاحِظُ تَنَوُّعَهُ ووَحْدَتَهُ في آنٍ، ويُوَظِّفُ المَعْرِفَـةَ والطُّـرُقَ العِلْميّة في حياتـه الشَّخْصيّة)؛ وهذا ما أَوضحـه تشارلز سنو ضَارِباً مِثالاً لذلـك بأنّ مَعْرِفَةَ الفَرْدِ العاديّ بـ«القانون الثَّانـي للدِّينامِيكا الحراريّة» تَحْتَاجُ لكي تُصْبِـحَ ذات قِيمـةٍ إلى (فَهْمٍ لا يُمْكِنُ تَحْقيقُهُ ما لم يَتَعَلَّـمْ الفَرْدُ بعْضاً من لُغَةِ الفيزياء، وهذا الفَهْمُ يَنْبَغِي أنْ يكون جُزْءاً من ثقافةٍ عامّةٍ في القَرْنِ العشرين)[٣٢].

وأمّـا طبيعة مُعَالَجَـةِ الإشْكَالِيّات التـي أَبْرَزَتْهَـا، أو أَوْجَدَتْهَا، «الحركـةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» فـي المُجْتمعات المُخْتلفة، فإنّها تُوَضِّحُ ضَرورة أنْ تَحْمِلَ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» - في إطَارِهَا العامّ - الجَانِبَيْن «الكَمِّيّ» و «الكَيْفِيّ»، فيَنْطَبِقُ على مَفْهُومِهَا التّعْريفُ الذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَـةُ التَّعاون الاقْتصاديّ والتّنْميـة» (OECD) بأنّ «الثَّقافة العِلْميّـة» هي: (القُدْرَةُ على تَبَنِّـي فِكْرٍ عِلْميٍّ)[٩٥]، كما أنّها - بالضّرورة - مُصْطلحٌ عامٌّ تَنْضَوِي تحت لوائِه أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ من الأنْشطة والمُمَارَسَاتِ والاهْتماماتِ والأشْكَالِ والوسائِط، وتُغَطِّي -كما سنرى لاحِقـاً - مِساحاتٍ وَاسِعَةً من التّنَوُّعِ والتّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفةٍ؛ لأنّ «الثَّقافة العِلْميّة» تَحْمِـلُ نَبْضَ «الحياة المُعاصِرَة» وحَيويّتَهَا، وتَعْكِسُ وَاقِعَهَـا ومُتَغيِّراتِهَا، وتَشْمَلُ تَفَرُّعَاتِهَا ومضامينِها.

وأمّـا التّعْريفُ - الوَارِدُ أعْلاه - الـذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَة التَّعاون الاقْتصاديّ والتّنْمية»، فمـن الوَاضِـحِ أنّه يظلُّ قَاصِراً عن الإحاطـة بأبْعَادِ «الإشْكَاليّـةِ» القَائِمَةِ في المُجْتمعات المُتَقَدِّمَـة والنّاميـة بدرجـاتٍ مُتَفَاوِتَـةٍ، والدَّاعِيَـةِ إلى ضَرورة توفيـر «البِنْيَـةِ التَّحْتيّة الثَّقافيّـة» القَادِرَةِ علـى اسْتِيعابِ مُعْطياتِ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة» وأفْكَارِهَا ضِمْن

أُطُرِهَـا الثّقافيّة وتفاعُلاتِهَا الاجْتماعيّة وتَطَوُّرِهَا التّاريخيّ وقِيَمِهَا السّائِدَة؛ لكي تتكامل جَوانِـبُ «الإنْسـان المُثقَّف عِلْميّاً»؛ وهـذا يَصُبُّ في ذات الاتِّجَاهِ الـذي يَدْفَعُ به عبد الله القفـاري بقولـه: (إنّ أيَّ مُحَاوَلَـةٍ للإسْهَامِ في حالة تَنْوِيرٍ عِلْميٍّ أو نَشْـرِ ثقافةٍ عِلْميّةٍ لن تكـون فقط بمُحَاوَلَةِ تَبْسيطِ المادّة العِلْميّة ليتَـمّ تداولُها بين أفْرَادِ المُجْتمع، باعْتبار أنّ هـذا عَامِلٌ ضروريٌّ لتَقْديـرِ العِلْمِ والكُشُـوفِ والتّقْنياتِ المُتَجَـدِّدَةِ والتَّعَامُلِ معها، ومن ثـمّ الدَّفْع بهذا الاتِّجَـاهِ في سِيَاقِ المُجْتمع. مـن المُهِمِّ - أيضـاً - بالإضافة إلى هذا أنْ تكـون قِرَاءَةُ «تاريخ العلوم» ليستْ بمَعْزِلٍ عـن التّطوُّراتِ التي صَاحَبَتْهَا على صعيد الفِكْرِ الاجْتماعيّ والسّياسيّ والاقْتصاديّ)[١٤].

٧-٢-٢) مُؤشِّرُ أداء: «مُعَامِلُ كفاءَة الأداء المُجْتمعيّ»:

كُلُّ تلك المُصْطلحاتِ الحيويّةِ المُعَاصِرَةِ مِثْل «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«التّنْميةُ المُسْتَدَامَة» و«توطيـنُ التّقْنية»؛ كُلُّهـا - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَتَطَلَّبُ شَرْطاً أساسـاً، وهو «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّـد في مجالات العلـوم والتّقْنية»؛ ولذا فالحاجةُ إلـى مِعْيَارٍ، قَابِلٍ للقِياسِ والمُتَابَعَةِ يكـون مُؤشِّراً إلى درجـة الاسْتِعْدَادِ ومدى التَّأهيلِ لذلـك «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّد»، أَمْرٌ ضَروريٌّ. وفـي خِضَمّ تفاعُلاتِ «المُجْتمع المُعَاصِر» مع التّقَاطُعَاتِ المُتَنَوِّعَةِ والتّشَابُكَاتِ المُتنامِيـةِ لـ«العلوم والتّقْنية»، واقْتِحامها لمساقات «الحياة المُعَاصِرَة» بمُخْتلف أنْمَاطِهَا وأشْكَالِهَـا، فإنّـه يَتَحَتَّـمُ علينا - في رأْيـي[٧٨] - أنْ نُعَرِّفَ مـا يُمْكِنُ أنْ نُطْلِـقَ عليه اسْم «مُعَامِلُ كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» الذي هو بمثابة: (مِقْياسٌ يُحَدِّدُ مدى قُدْرَةِ المُجْتمع على توفيـر البِيئة النّاجِحَةِ في تفاعُلاتِه مع مُشْكَلاتِ العَصْرِ الحديث وتحدّياتِه التّنافُسيّةِ في مُخْتلف المجـالات الإنْتاجيّة والعِلْميّة والبَحْثيّة وغيرها). إنّ هذا «المُعَامِلَ» - بالضّرورة - يتناسبُ طَرْدِيّاً مع ارْتِفَاعِ عَدَدِ «المُثقَّفين عِلْميّاً» في المُجْتمع، فيكون تَعْريفُهُ: (النِّسْبَةُ بيـن عدد الأشْخاص «المُثقَّفيـن عِلْميّاً» وبين إجْمالي عَدَدِ السُّـكان)؛ وذلك لأنّ السُّكان هـم الذين يَحْتَلُّون مَوَاقِع مُخْتلفةً في المُجْتمـع، ويُسْهِمُون في صُنْعِ القرار على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ مـن الصَّلاحيّاتِ ودرجـاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ مـن الأداء، ويُمارِسُون حياتهـم - الخاصّة

والعامّـة - على مُسْتوياتٍ نَوعيّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وبالتّالي كُلّمـا ارْتَفَعَ عَدَدُ الأشْخاص «المُثقَّفين عِلْميّـاً» تَحَسَّـنَ «الأداءُ المُجْتمعيّ»، وتَطَوَّرَتْ عطاءاتُ المُجْتمـع، وارْتَفَعَتْ فَعّاليّتُه، فوفْق «التَّقْريـر العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو» - الصّادر في عـام ٢٠٠٥م- فإنّ: (النَّفَاذ الشَّامِل للمَعْرِفَة هو الدّعامة التي تُسَانِدُ الانْتِقَالَ إلى «مُجْتمعات المَعْرِفَة») [٨٣].

بطبيعة الحال ستَدْخُلُ على تَعْريف «مُعَامِل كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» مُؤثِّراتٌ أُخْرى، منْهـا على سبيل المِثال طبيعـةُ المَوْقِعِ الذي يَحْتَلُّـهُ «المُثقَّفُ عِلْميّاً»، فكُلّمـا كان المَوْقِعُ أكْثـر تَأْثيراً في قـراراتِ المُجْتمع وتَوَجُّهَاتِه، ارْتَفَعَتْ «كفـاءَةُ الأداء المُجْتمعيّ»، والعَكْسُ صحيـح. وأمّـا ما يَجْعَلُ تلك العَلاقَة قريبـةً من وَاقِعِ الحياة فهو أنّ القَاعِـدَةَ العامّةَ تَدُلُّ علـى أنّه كُلّما ازْدَادَتْ أعْدادُ «المُثقَّفين عِلْميّـاً» زَادَتْ فُرَصُهُمْ، وكَبُرَتْ احْتمالاتُ تَبَوئِهِمْ مَواقِع مُؤثِّرةٍ ذات نُفُوذٍ أكْبر في حياة المُجْتمع، وبالتّالي تَحْسينُ أحْواله وتَطْويرُ إمْكاناتِه وإنْجَـاحُ خُطَطِـه التّنْمَويّة، فوفْق «التَّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَـة اليونسكو» - الصّادر في عام ٢٠٠٥م -،فإنّ: («الشَّرْخ المَعْرفيّ» يَنْتُجُ عن أنّ اسْتِيعاب المَعْلُومات أو المَعْرفة يكون أقلّ لدى الغَالِبيّـة من تلك الفِئات التي تَشْغَلُ الدَّرجات الأكْثر ارْتفاعاً في السُّلَّم الاجْتماعيّ) [٨٣].

٧-٢-٣) نحو تَعْريفٍ شَامِلٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة»:

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» تُمَثِّلُ عَالَماً مُتَعَدِّدَ الأطْياف، ومُتَدَاخِلَ الألْوان؛ فهي الفيزياء والكيمياء والرياضيّـات وعُلوم الحياة وعُلوم الأرْض والفلك وعُلوم الفضاء بمبادئهـا ونظريّاتهـا، وهي التّطْبيقـاتُ الحياتيّةُ والتّقنيّـةُ المُتَنَوِّعَة، وهـي الاكْتشافاتُ والاخْتراعـاتُ، وهـي «تاريـخُ العلـوم» و«فَلْسَفَةُ العلـوم»، وهي سِيَـرُ العُلمـاء وعَلاقَاتِهِمْ وتفاعُلاتِهـم، وهـي «المَنْهَـجُ العِلْمـيُّ» بمُقَوِّمَاتِـهِ وأُطُرِه، وهـي التّأْثيـراتُ العميقةُ التي تَتْرُكُهَا «العلـوم والتّقْنية» على أفْكَارِ «العلوم الإنْسانيّة» ومُعْطياتِها، وهي «الخيالُ العِلْميُّ» بانْطلاقاتِـه وإبْداعاتِـه، وهـي «الإعْجَازُ العِلْميُّ فـي القـرآن والسُّنّة» بآفاقِـه وتَجَلِّيَاتِه، وهـي القِيَمُ والمُمَارَسَـاتُ والمعاييرُ المُرْتَبِطَةُ بالتّفاعُلِ العِلْمـيّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، وهي

المُسْتَجِـدَّاتُ اليوميّةُ على ساحة «العلوم والتّقْنية» التي تُبَدِّلُ مَعَالِمَ الأرْض، وتَسْبُرُ أغْوَارَ الفضـاء، وتُغَيِّـرُ أنْمَـاطَ العَلاقَات، وتُشَـكِّلُ مُعْطياتِ الاقْتصـاد، وتَفْرِضُ علينا - عبْر «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» - نَهْجَهَا وخَصَائِصَهَا ومُقْتضياتِها.

بإيجازٍ، نَسْتطيعُ هنا أنْ نَسْتَعِيرَ المَقُولَةَ التي تُعْزَى إلى جورج سارتون بأنّ: («العلوم الحديثـة» هي «شُمُوليّةُ المَعْرِفَةِ الإيجابيّة»)، فنقول بأنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» هي «شُمُوليّةُ الثَّقافـة الإيجابيّة») ليَتَجَلَّى بذلك دَوْرٌ أرْحب، وتَبْـرُزُ تداعِياتٌ أكْبر، لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي ذات عَلاقَةٍ عُضْويّةٍ بالرُّؤية التي طَرَحَهَا زكي نجيب محمود بقوله: (ليستْ المَسْألَةُ هنا مَسْألَةَ طَائِفَةٍ من القوانين العِلْميّة يَحْفَظُهَا طُلّابُ العلوم، بلْ هي قبْل ذلك وبعْد ذلك مِنْهَـاجٌ للنَّظَـر، إذا ما اصْطَنَعْنَاهُ بحَـقٍّ، أَلْفيناه يُجاوزُ حُدُودَ الكُتُـبِ والمخابير، ليُصْبِحَ طريقـةً للنَّظَرِ في شُؤون الحيـاة العمليّة كُلّها من سياسةٍ إلى اقْتصادٍ إلى عِمْرانٍ والْتِزامٍ بقَواعِـدِ الصِّحَّة وغيرها من جَوانِبِ العيش)[٣٤]. من هـذا المُنْطَلَقِ لجأ بَعْضُ المُهْتمّين إلـى «تَعْريـفٍ إجْرَائِيٍّ» بحيث تكـونُ «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ» هـي: (تَزْويدُ الأفْـرَادِ بمَعْلُوماتٍ وظيفيّـةٍ مُرْتَبِطَةٍ بالعِلْم وتَطْبيقاتِـه، واتِّجاهاتٌ إيجابيّةٌ نحو العِلْـم كنِعْمَةٍ، وسَلْبيّةٌ نحوه كنِقْمَـةٍ، وتَفْكيرٌ عِلْميٌّ في حَـلِّ قضايا العِلْم ومُشْكلاته، وتَفْكيرٌ ابْتِكَاريٌّ نحو تَقَبُّلِ الجديدِ والمُسْتَحْـدَثِ فـي مجـال الاكْتشافـات والاخْتراعـات العِلْميّة، ومهـاراتٌ يدويّـةٌ وعَقْليّةٌ واجْتماعيّـةٌ، ومهاراتٌ اتِّصَالٍ في مجـالِ العِلْم وتَطْبيقاتِه، ومُيُـولٌ واهْتماماتٌ عِلْميّةٌ في مجـال العِلْـم، وتَقْديرُ جُهُودِ الدّولة في المجـالات العِلْميّة وجُهُودِ العِلْـم والعُلماء، واتِّبَاعُ السُّلُـوكِ البيئـيّ السّليـم، كُلُّ ذلك في إطَـارٍ قِيميٍّ وأخْلاقـيٍّ يَتَمَشَّى مع الإطَـارِ القِيميّ للمُجْتمع)[١٠٠].

وانْطلاقـاً من تلك المساحاتِ الشّاسِعَـةِ التي تَتَمَدَّدُ عليها «الثَّقافـةُ العِلْميّة»، نجدُ أنّهـا ليستْ مُجَرَّدَ اهْتمامٍ بنَشْرِ الحقائِـق العِلْميّة والمَعْلُومات التّقْنيّة؛ فهي ليستْ «ثقافة مَعْلُومـات» فقـط، ولكنّها أيضـاً حِرْصٌ على تَأْسيـسِ عَلاقَةٍ بين «عَالَـمِ الأشْياء» و«عَالَمِ الأفْـكار» لتكون قُوّةً دَافِعَـةً للتَّحَوُّلاتِ الاجْتماعيّة المُعَاصِرَة، ورُؤيـةً حضاريّةً مُتأصِّلَةً في القِوامِ الفِكْريّ، وعَامِـلاً مُحَفِّزاً للابْتكارِ والتّفاعُلِ الإيجابيّ مع طبيعة العَصْرِ ومُتَغيِّراتِه

عبْر مُشارَكَةِ الفَرْدِ وإدْراكِهِ للتَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّةِ التي تَفْرِضُهَا «العلوم والتّقْنية» على مُخْتلف مسارات المُجْتمع، والمَطْلُوب منْها أنْ تصل إلى درجةٍ من العُمْقِ والاتِّساعِ لتتمكَّنَ من تَشْكيلِ وَعْي الفَرْد، وتَكْوينِ التَّوَجُّهَاتِ الاجْتماعيّة، والتّأْثيرِ في السُّلُوك، وتَأْصيلِ مهاراتِ النّقْدِ والتّحْليلِ والتّفْكيرِ الموضوعيّ، وذلك لأنّ «المَعْرِفَةَ العِلْميّة»، كما يقولُ جلين سيبورج،: (ليستْ عقيمةً أو مَلْفُوفةً بأوراق السيلوفان، ولكنّها تَقْبَعُ بالقُرْبِ من قَلْبِ الفَلْسَفَة والثّقافة)[٤٤].

ومن المُهِمّ الإشارة هنا إلى أنّه في زمن تَغَلْغُلِ المُعْطيات العِلْميّة والتّقنيّة في مُخْتلف مناحي الحياة، ووجودِها المُؤثِّرِ في مُخْتلف الأصْعِدَة، فإنّ «الثّقافة العِلْميّة» تقومُ بدَوْرٍ مُهِمٍّ في عمليّة التّمْييزِ بين الجَيِّدِ والرَّديء، والفَرْزِ بين الحَسَنِ والسَّيئ، فكما يقولُ ديفيد رزنيك: (إنّ الجُمهُورَ يَحْتَاجُ إلى التّثقيف في شَأْن التّطوُّراتِ العِلْميّة المُهِمَّة ونتائِجِ البَحْثِ العِلْميّ، كما أنّه يَحْتَاجُ إلى الحِمايةِ من مخاطِرِ العِلْمِ التَّافِهِ والمَعْلُوماتِ الخَاطِئَة)[٩٨]. ولعلّ من المُنَاسِب هنا أنْ نَسْتَلْهِمَ من «عِلْمِ الفيزياء» رُؤيةً ثقافيّةً عبْر أحد أبْرز مفاهيم «النَّظريّة النِّسْبيّة الخَاصَّة» التي تَنُصُّ على: (تكافؤ المادّة والطّاقة حيث يُعْتَبَرَان وَجْهَيْن لعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ فيُمْكِنُ تَحْويلُ أحدهما إلى الآخَر)؛ فنقولُ إنّ تَرَاكُمَاتِ «الثّقافة العِلْميّة» - بمُحْتواها الفعّالِ من مَعْلُوماتٍ وقِيَم وضَوابِط وخيالٍ وإنْجازاتٍ وتاريخٍ مُفْعَمٍ بمُتَغيِّراتٍ غير مَسْبُوقَةٍ في حياة البشر - قَادِرَةٌ على أنْ تُحَوِّلَ تلك «المَادَّةَ» الثّقافيّة - لدى المُتَلَقِّي - إلى «طاقةٍ» دَافِعَةٍ إلى عَوالِمِ الابْتِكَارِ والاكْتِشَافِ والإنْتَاجِ والمُشارَكَةِ الإيجابيّةِ في مُتَغيِّرَاتِ العَصْرِ بـ«رُوحِ العَصْر».

تَأْسيساً على ما سَبَقَ تُصْبِحُ «الثّقافةُ العِلْميّةُ»، في إطَارِهَا العامّ، هي: (الجُهُودُ التي تَحْرِصُ على تَقْليصِ الفَجْوَاتِ «العِلْميّة» و«التّقنيّة» و«المَعْلُوماتيّة» دَاخِلَ المُجْتمع، وتُعْنَى بتَبْسيطِ مُعْطياتِ العلوم ومُنْتَجَاتِ التّقْنية، وما تُحْدِثُهُ «الحركةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» من آثارٍ وانْعكاساتٍ على المُسْتوياتِ المَعْرفيّة والفِكْريّة والفلْسفيّة والسُّلُوكيّة والقِيميّة والبيئيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة، وغير ذلك من مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع المُعَاصِرِ ومَلامِحِهِ في سَيْرِهِ الحثيثِ نحو تَحْقيقِ «المُجْتمع العِلْميّ»)[٣٤،٣٥]. وتَأْسيساً على ما سَبَقَ - أيضاً -

تَتَّضِحُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلميّة» كأداةٍ مُعَاصِرَةٍ للتّغْيير والتّطْوير والتّنْمية: «تَنْميةُ التَّفْكير» و«تَنْميـةُ المَوارِد»؛ وهكذا نجـدُ أنّ «الثَّقافة العِلمِيّة» تَقَعُ - بالضّـرورة - ضمْن ما أَسْمَاهُ محمـد عابد الجابريّ بـ«الأدوات الجديـدة» عندما كتب يقول: (لا يُمْكِنُ أنْ نُقيمَ لأنْفسنا فَهْمـاً جديداً لثقافتنا الماضِيـة، ولا بِنَاء ثقافةٍ جديـدةٍ، إلاّ باسْتِعْمَالِ أدواتٍ جديدةٍ من هذا النَّوْع، أَعْنِي مفاهيم ومناهِج الفِكْرِ المُعَاصِر)[1].

وبغَضِّ النَّظَرِ عن الطَّبيعةِ الانْفعاليّةِ والسَّجِيّـةِ العَاطِفيّةِ لـ«الثَّقافة العربيّة» اللتين تَلَمَّسْنَـا سِمَاتِهُمَـا في فُصُـولٍ سَابِقَةٍ من هذا الكِتاب، فـإنّ الحقيقة تَبْقَى بـأنّ الإنْسان بطبيعتِه عَاطِفـيّ المِزَاج، ويُعَانِي من خاصِّيَّةِ «القُصُورِ الذَّاتيّ» التي تُقاوِمُ التَّغْيير، وهذا هـو الجَانِبُ الذي عَبَّـرَتْ عنه «إشْكَالِيّةُ الثَّقافَتَيْن» التـي طَرَحَهَا تشارلز سنو[32] (انْظر: الفَصْـل الثّاني). ولـذا فإنّ «الجَانِبَ العِلْميّ» الـذي يَسْتَوْجِبُ اسْتِبْعَـادَ العَاطِفَة، وتَغْليبَ الصَّرَامَـةِ في التّحْليلِ والتّقْييـم، يَتَطَلَّبُ «تَدْريباً» خاصّاً على أساليبِـه وفِكْرِه، ويَسْتَدْعِي «ثقافةً» تَتَوَاءَمُ مع خَصَائِصِهِ وتَسْتَوْعِبُ آفاقَه، فكما يقولُ زهير الكرمي[77]: (إنّ «العِلْمَ» بطبيعتـه غريـبٌ عن طبيعة الفِكْرِ الإنْسانـيّ المُعْتَاد)، ويقولُ أيضاً: (مـن الوَاضِحِ أنّه لا يُمْكِـنُ أنْ يكون الإنْسـانُ عَالِماً بالفِطْـرَةِ، ولا أنْ يُصْبِحَ عَالِماً بدون مِـرانٍ شَاقٍّ وتَدْريبٍ مُتَّصِـلٍ، شريطـة أنْ يكون ذلك في مُنَاخٍ عِلْمـيٍّ يُوَفِّرُهُ المُجْتمعُ والدّولـةُ ويَحْرِصَان على تَنْميتـه). وأمّا فيما يَتَعَلَّقُ بالبَحْثِ عن تَعْريفٍ جَامِـعٍ مَانِعٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» فقد تَعَدَّدتْ الجُهُـودُ لمُحَاوَلَةِ وَصْفِ هـذا الأخْطَبُوطِ الذي يَمْتَدُّ ويَتَشَعَّبُ يوميّـاً، وتَلْتَفُّ دَوائِرُهُ بشَكْلٍ مُتنامٍ حول حياة الإنْسان بكُلِّ أبْعَادِهَا ومضامينِها؛ ولكنّي أُفَضِّلُ أنْ أصوغ تَعْريفَ «الثَّقافة العِلْميّـة» علـى أنّها: («المُحْتَـوَى العِلْميّ - التّقنـيّ - الفِكْريّ» القَادِرُ علـى القيامِ بعمليّةِ «التَّأْهيل الثَّقافيّ» للمُجْتمع ليَتَمَكَّنَ من خَوْضِ غِمَارِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»)[78،101].

٧-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: التّفرُّعات:

انْطلاقاً من الإطَارِ العامّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، فإنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على صُنُوفِهَا وتفرُّعاتِهَـا، فهـي تَتَنَوَّعُ بتنوُّعِ «الجُمْهُـور المُسْتَهْدَف»، كما أنّها تَتَلَـوَّنُ بطَيْفِ «المجال أو التَّخصُّص المَعْنيّ».

٧-٣-١) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «الجُمْهُور المُسْتَهْدَف»:

لقد أَدْرَكَ تشارلز سنو عند طَرْحِهِ لـ«إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن» أنّ حَصْرَ «الإشْكَاليّة» في الفَجْوَةِ بين «أصْحاب التَّخصُّصات العِلْميّة» و«أصْحاب التَّخصُّصات الأدبيّة» يَتَضَمَّنُ قَدْراً كبيراً من تَبْسيطِ الحقائِق، ولقد ساعد ذلك التّبْسيطُ على توفيرِ زَخْمٍ للقضيّة لبساطتِه ووضوحِه، فحسب قول سنو: (لقد وَقَعَ الاخْتيارُ على المُفكّرين الأدباء لأنّهم يُمَثّلون ويُبْرِزُون، وإلى حَدٍّ كبيرٍ يُشَكّلُون ويُعَبّرُون عن مِزَاجِ «الثّقافة غير العِلْميّة»)[٢٢]. أمّا وَاقِعُ الأَمْرِ، فإنّ شرائِحَ المُجْتمع من المُفكّرين والمُثقّفين وصَانِعي القرار تُمَثّلُ أطْيافاً مُخْتلفةً من الاهْتمامات والتّخصُّصات في مجالاتٍ أدبيّةٍ وإنْسانيّةٍ واقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وقانونيّةٍ وغيرها، وكُلُّ شريحةٍ تَحْمِلُ ثقافتها الخاصّة المُرْتَبِطَةَ بطبيعة اهْتمامِها ونَوْعِ تَخَصُّصِهَا، ممّا يضعنا في مُوَاجَهَةِ مِئات الثّقافات بَدَلاً من «الثَّقافَتَيْن» اللتين طَرَحَهُمَا تشارلز سنو. في الوَقْت نفْسه فإنّ تَشْخيصَ سنو لـ«الإشْكَاليّة» يَكْتَسِبُ رَمْزيّةً مُهِمَّةً في ضوء تلك التّعْقيدات والتّدَاخُلات، ويُؤَكّدُ أنّ «الانْفِصَامَ الثّقافيّ» يَتَعَمَّقُ ويَتَرَسَّخُ مع تنامي العلوم والتّقْنية والآداب والدّراسات الإنْسانيّة والاقْتصاديّة وغيرها، ويُبْرِزُ ضَرورة التَّصَدِّي للشَّرْخِ المُتَفَاقِمِ بين «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وبين «الجُمْهُور» بمُخْتلف شرائحِه وفِئاتِه وثقافاتِه.

تلك الحقيقةُ تُكْسِبُ «الثّقافة العِلْميّة» مضامين مُخْتلفةً وأساليب مُتَعَدِّدَةً تتناسَبُ مع اهْتمامات «الشّريحة المُسْتَهْدَفَة» وخَلْفيّتِهَا العِلْميّة ورصيدِها الثّقافيّ؛ فمن ضَرورات برامِج التّوعية والتّثقيف والحِوار أنّ «لكُلِّ مقامٍ مقالاً» وفْقاً للمَقُولَةِ المَشْهُورَة: (خَاطِبُوا النَّاس على قَدْرِ عُقُولِهِمْ). ولذا فإنّ من الواضِحِ أنّ مَضْمُونَ «الثّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ إلى شرائح من النُّخَبِ المُتَخصِّصةِ ليس بالضّرورة مُتَوافِقاً في «المُحْتَوَى»، أو مُتَطابِقاً في «الأهْداف»، مع النَّهْجِ الذي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ مع عامّة النّاس، ونَذْكُرُ هنا - على سبيل المِثال - خصائِص «الثّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ لـ«الطِّفْل»، وهي قضيّةٌ حَاسِمَةٌ في خُطَطِ «التّنْمية العِلْميّة والثّقافيّة والتّقنيّة»، ونجدُ هنا - بطبيعة الحال - أنّ مضامين هذه

«الثَّقافة» ووسائـلِ إيضاحِها وأساليبِ طَرْحِهَا تَتَمَيّزُ عن غيرهـا بالمفاهيمِ والشُّرُوحَاتِ والرُّسومات المُنَاسِبَةِ لمدارك «الطِّفْلِ» ومَرْحلتِه العُمْرِيّة.

ويـرى «التّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو»، الصّـادر في عام ٢٠٠٥ م، أهميّة نَشْرِ «الثَّقافـة العِلْميّة» بين «أصْحَـابِ القَرَارِ»، حيث يُقَرِّرُ أنّه: (يجبُ إضافة «الثَّقافة العِلْميّة» على مَنْهَجِ إعْدَادِ أصْحَابِ القَرَارِ وكِبَارِ مُوظَّفي الدّولة، وسيُشَكِّلُ ذلك نُقْطَةً كبيرةً للبلدان النّامية حيث يُكْبَحُ التّجْديدُ أحْياناً بسبب الصُّعُوبَةِ التي يُجَابِهُهَا أحْياناً «أصْحَابُ القَرَارِ» فـي فَهْمِ الرِّهانـاتِ وأهميّةِ الإشْكاليّاتِ العِلْميّـة والتّكنولوجيّة. إنّ تَكْويـنَ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» يَهْـدِفُ إلى مَنْـحِ الأفْرَادِ القُدْرَةَ علـى المُشَارَكَةِ الفعّالـةِ في حُكْمِ المُجْتمعـات المُتَأثِّرَةِ بصُـورةٍ مُتزايدةٍ بالعلوم والتّكنولوجيّات أكْثر مـن هدفه في إغْنَائِهِمْ بكَمِّيّةٍ من المعارف المُحَدَّدَة)[٨٣].

أمّا خريطةُ التّخصُّصات العلْميّة والمجالات التّقنيّة نفْسها فإنّها تَتَمَدَّدُ وتَتَّسِعُ؛ فكُلُّ تخصُّصٍ يُفْرِزُ مزيداً من التّخصُّصات التي تَبْتَعِدُ تدريجيّاً عن «التَّخَصُّص الأُمّ»، كما أنّ «الدِّرَاسات البَيْنِيّة» (Interdisciplinary Studies)، وهي عمليّةٌ نَشِطةٌ ومُتناميةٌ، وَلَّدَتْ مزيداً من التّخصُّصات الجديدة والتّقْنيات الحديثة؛ ولذا نجدُ - مع تباعُدِ التّخصُّصاتِ ونُمـوِّ تداخُلاتِهـا - أنّ كثيـراً مـن المُتخصِّصين عِلْميّاً هـم - في الوَاقِـع - «أُمِّيّون» في مجالاتٍ عِلْميّةٍ تَقَـعُ خَارِجَ نِطَاقِ تخصُّصهِم الدّقيق، وهذا ما يُؤكِّدُهُ روبرت هيزن بقوله: (مـن المُدْهِشِ أنّ الدِّرَاسَةَ المُكَثَّفَةَ لمجالٍ مُحَدَّدٍ من العلوم لا تَجْعَلُ صاحبها بالضّرورة «مُثقَّفـاً عِلْميّاً». في الوَاقِعِ إنّني مُنْدَهِشٌ أنّ العُلمـاء العَامِلين يصلون - في الغَالِب - إلى درجـةٍ مُثيـرةٍ للشّفقة في عـدم إلْمَامِهِـمْ بمجالاتٍ عِلْميّـةٍ تَقَعُ خَارِجَ نِطَـاقِ تخصُّصهِم المِهْنـيّ)[٤٦]. ولا يُمْكِنُ هنا إغْفَـالُ الدَّوْر الحيويّ للعَامِلين التّقنيّين والفنّيين في مُخْتلف المجـالات؛ فالتّعْقيـدُ المُتزايدُ في الأجْهِـزَةِ التّقنيّة - بمُخْتلف أغْرَاضِهَـا وتَطْبيقاتِها - تَسْتَدْعِـي مُسْتوياتٍ من «الثَّقافة العِلْميّة» والخِبْرَةِ التّقنيّة والانْضِبَاطِ العمليّ لدى العُمّال والفنّيّيـن الذين يتولُّـون صِناعتَها وصِيانتَهـا وتَشْغيلَها، وهذا ما يُوَضِّحُـهُ زهير الكرمي بقولـه: (لقد ثَبَـتَ أنّ العَامِلَ الذي يكون على عِلْمٍ ودِرايةٍ، ولو مَحْـدُودَةٍ، بالأُسُسِ العِلْميّةِ

التي بُنِيَتْ عليها تكنولوجيّة آلته التي يَعْمَلُ بها يكون أقْدر على إتْقَانِ العمل واتِّقَاءِ الأخْطاء وزِيـادة الإنْتاج بالمُقَارَنَةِ مـع زميله الجَاهِلِ الذي يقوم بعمله بعـد تَدْريبٍ آليٍّ ودون فَهْمٍ صحيـح. وفـوق ذلك يكون الأوَّلُ أقْدر علـى التّحَوُّلِ من آلةٍ تكْنولوجيّةٍ إلـى أُخْرى مُطَوَّرةٍ وأكْثـر تَعْقيـداً، ولهذا ما له من أَثَـرٍ على حالته النّفسيّـة وثِقَتِهِ بنفْسِـه ومُسْتَقْبَلِه، وهذا يَنْعَكِسُ إيجابيّاً على سُلُوكِه وحياتِه وأُسْرَتِه ومُجْتمعِه)[٧٧].

كُلُّ تلك الحقائق تَعْنِي - بالضّرورة - أهميّة القيام أيضاً بعمليّات تَثْقيفٍ وتوعيةٍ بين أصْحاب التَّخصُّصات العِلْميّـة» أنْفسهم، وبين العَامِلين في المجالات التّقنيّة المُخْتلفة، ويَبْرُزُ هنا مِثَالٌ وَاضِحٌ على تَعَـدُّدِ أشْكَالِ «الثَّقافة العِلْميّة» ومُكَوِّناتها؛ فـ«الثَّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَـةُ إلى العَامِلين في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» ستَخْتَلِفُ في مضامينِها وأشْكَالِهَا وأهْدَافِهَـا وأساليبِها عـن «الثَّقافة العِلْميّـة» المُوَجَّهَةِ إلى غيرهم مـن شرائِح المُجْتمع؛ فدارِسُو العلوم يَلْتَقُون - على الأقلّ - عند حَدٍّ أدْنَى من المَعْرِفَةِ العِلْميّة، والفَهْمِ المُشْتَرَك، والمُنْطلقاتِ المُتَشَابِهَة.

٧-٣-٢) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «التّخصُّصات العِلْميّة والتّقنيّة»:

تتأثَّـرُ «الثَّقافـةُ العِلْميّـةُ» المُوَجَّهَـةُ إلـى «الجُمْهُـورِ» بامْتـدادات السّاحـة العِلْميّة والتّطـوُّراتِ التّقنيّـة لتَتَفَـرَّعَ وفْق تلـك التّشْكيـلاتِ والأنْمَاطِ، وتَتَلَـوَّنَ بألْوانِهَـا، وتَتَبَنَّى أهْدَافَهَـا؛ فالثّقافـة الصّحيّة، والإرْشـاد الزِّراعـيّ، والتّوعية الغذائيّـة، والوَعْي البيئيّ، والثّقافة التّقنيّة؛ كُلُّها فُرُوعٌ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي تُعْنَى بمجالاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وتَعْمَلُ دَاخِلَ أُطُـرٍ تُقَيِّدُهَـا طبيعةُ الاهْتمـام، ونَوْعُ التّخصُّص، ودرجةُ التّجاوبِ المَنْشُـود. ولعلّه من اللاّفِتِ للانْتباه أنّ برامِجَ «الثَّقافة العِلْميّة»، المُرْتَبِطَةَ بالصِّحّةِ والغِذَاءِ والتّأثيرِ المُبَاشِرِ فـي حياة الفَرْد، قد حَقَّقَتْ حُضُوراً مَلْمُوساً في كثيـرٍ من «المُجْتمعات العربيّة»، واهْتَمَّتْ بهـا وَسَائِلُ الإعْـلام، ممّا يُوضِّحُ أنّ الحاجة تَفْرِضُ درجة الاهْتمـام، وبالتّالي فإنّ تَفْعيلَ برامِـج «الثَّقافة العِلْميّة» الأُخْـرى مَرْهُونٌ بقُدْرَةِ المُجْتمعات على إدْرَاكِ أهميّة هذا النّوْعِ من «الثَّقافة»، ومدى ارْتِبَاطِهِ بتَحْديدِ مُسْتَقْبَلِهَا ورخائِها وتَنْميتِها؛ فكُلّما ارْتَقَى «المُسْتوى

الثَّقافـيّ – العِلْميّ» في أوساط المُجْتمع، ارْتَفَعَتْ «درجـةُ الإنْتاجيّة»، وازْدَهَرَتْ «مُقَوِّمَاتُ الحيـاة المُعَاصِرَة»، ونما الطَّلَبُ علـى «الثَّقافة العِلْميّة»، وبَرَزَتْ الحاجةُ إليها. أمّا أحْدث مِثَـالٍ على التّنَوُّعِ والتَّوالُدِ الذّاتيّ لـ«الثَّقافـة العِلْميّة»، فهو ظَاهِرَةُ «ثقافة الإنْترنت وتَقْنية المَعْلُومـات» التـي اجْتَذَبَتْ إليها أعْدَاداً مُتزايدةً من مُخْتلـف الشّرائِح والاهْتمامات؛ لما يُقَدِّمُـهُ هذا الطُّوفَانُ المَعْلُومَاتيُّ والاتِّصَالاتيُّ من خِدْماتٍ وآثارٍ على المُسْتويات الثّقافيّة والتّرْفيهيّة والمَعْلُوماتيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها.

ومـن أنْواعِ «الثَّقافـة العِلْميّة» ما أشرنا إليه سابقاً، ونقْصـد به «ثقافة المَعْلُومات»، وهـي مـن أهمِّ أنْـواع «الثَّقافـة العِلْميّـة» لاهْتمامِها بشَـرْحِ الحقائِـق العِلْميّـة، وتَبْسيطِ المبادئ، وتوضيحِ عمل الأجْهِزَةِ التّقنيّة، وحِرْصِهَا على توعيةِ «الجُمْهُورِ»، ورَفْعِ رصيدِهم المَعْلُوماتـيّ، ومُوَاكَبَةِ المُسْتَجِدَّاتِ العِلْميّة؛ ممّا يُتيحُ للفَرْد فُرَصَ تَنْميةِ مَعْلُوماته العِلْميّة والتّقنيّـة وتَصْحيحِها. ولذا فـإنّ «ثقافة المَعْلُومات» جَانِبٌ لا يُمْكِـنُ إغْفَالُهُ في «مَنْظُومَةِ الثَّقافة العِلْميّة»؛ لما لها من تَأْثيرٍ حيويٍّ في تَفْعيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» وتَحْقيقِهَا لوظيفتِها الاجْتماعيّـة؛ فمـن الوَاضِحِ أنّ «ثقافـة المَعْلُومات» تُسْهِمُ إسْهاماً جَمّـاً في تَنْمية «الحِسِّ العِلْميّ» لدى «الجُمْهُورِ»، وتَحْقيقِ «حَدٍّ أدْنَى» من «الثَّقافة العِلْميّة» في «النَّسيج المُجْتمعيّ»، وتُهَيِّـئُ عامّةَ النّاس لاسْتيعابِ طرائِق «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة» وقضاياها ومُشْكلاتِها وحُلُولِهَـا، ووسائـل توظيفِهـا لخِدْمَةِ الفَـرْدِ والمُجْتمع. ولكن على الرّغْم مـن أهميّة هذا الجانِـبِ إلاّ أنّ سَطْـوَةَ «الثَّقافة العِلْميّـة» تَمْتَدُّ لتَلِجَ إلى المضاميـن الفِكْريّة والاجْتماعيّة والثقافيّـة لتُنَاقِشَ ما يَرْتَبِطُ بـ«العلـوم والتّقْنية» من أفْكَارٍ ومُصْطلحاتٍ وتَوَقُّعَاتٍ ونتائِج، تَنْتَشِـرُ على مِسَاحَـاتٍ وَاسِعَـةٍ ومُسْتوياتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ فِكْريّـةٍ وفَلْسفيّةٍ وعمليّـةٍ واجْتماعيّة وثقافيّةٍ وتَنْمَويّة.

وهكـذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» مِسَاحَةٌ شَاسِعَةٌ من التَّنَوُّعِ والتَّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ تَعْكِسُ وَاقِـعَ «الحيـاة المُعَاصِـرَة» بأنْمَاطِهَا المُتَعَـدِّدَةِ وتداخُلاتِهـا المُتَجَدِّدَةِ ومضامينِهـا المُتَرَاكِمَـة، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يقـود «التَّرَاكُمُ الكَمّيّ» – فـي مُخْتلف مجالات «الثَّقافـة العِلْميّـة» – إلى «التَّحَوُّلِ الكَيْفـيّ» المَطْلُوبِ تَحْقيقه، لتُصْبِـحَ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ»

جُـزْءاً حيويّـاً مـن «التَّكْوين الثَّقافـيّ» للمُجْتمـع، ومَعْلَماً أساساً فـي تفاعُلاتِـه التّنْمَويّة والاجْتماعيّة والفِكْريّة. وتَأْسيساً على ما سَبَقَ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي الأدَاةُ الفعّالَةُ لتَحْقيقِ «امْتدادات التّنْمية» – أفقيّاً ورأْسيّاً –؛ فهي تَشْمَلُ كُلَّ تلك التّفاعُلاتِ والتَّقَاطُعَاتِ والتّداخُـلاتِ بين مُخْتلف قطاعات المُجْتمع ومناطقِه وأنْشطتِـه، فيَتَحَسَّنُ الأداءُ وتَرْتَفِعُ الإنْتاجيّة؛ وهي تَحْفِرُ دَاخِلَ «التَّخصُّصات العِلْميّة والإنْسانيّة» أعْمَاقاً جديدةً عبْر إثْرَائِهَا وتَزْويدِها لـ«الجُمْهُورِ» بالمَعْرِفَـةِ المُتَنَوِّعَةِ في مُخْتلف مجالات «العلوم والتّقْنية»، فتَتَبَلْوَرُ المَدْلُولاتُ، وتَزْدَهِرُ الخِبْرَاتُ، وتَعُمُّ الفَائِدَة.

٧-٤) «الثّقافة العِلْمية»: الأهْدَاف:

ومـن مُنْطَلَقِ أنّ «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّـة» حركةٌ بشريّةٌ تَنْتُجُ عـن تَدَافُعِ النّاس وإبْداعاتِهـم، وتَصُوغُهَـا تفاعُـلاتُ المُجْتمـع واهْتماماتُـه، وتُوَجِّهُهَـا حاجـاتُ العَصْرِ ومُتطلَّباتُه، ولأنّها أَصْبَحَتْ الهَمَّ الرّئيسَ في سياسات الدُّول وخُطَطِهَا بمُخْتلف مُسْتوياتِها العِلْميّـة وإنْجازاتِها التّقنيّة، وهي المُحَدِّدُ الأوّلُ لرفاهيّة المُجْتمعات وقُدْرَاتِهَا الإنْتاجيّة، فإنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» في المُجْتمعات يَطْمَحُ إلى تَجَاوِزِ «التَّعَامُل السَّطْحِيّ» مع العلوم والتّقْنية، والانْطلاق إلى تَحْقيقِ الأهْدَافِ التّالية:

١) الإسْهَامُ الفَاعِلُ في إزالة العَقَبَاتِ الفِكْريّة والعراقيل المَعْرفيّة التي تَحُولُ دون المُمَارَسَةِ العِلْميّة الرّصينة والتّفْكيرِ الجَادّ؛ لأنّ ضَخَّ جُرْعَاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» فـي «البِنْيَةِ الفِكْريّـة» والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة السّائِدَةِ يُزيلُ كثيـراً من عناصرِ الرَّهْبَـةِ ومَشَاعِرِ الغُرْبَة، ويُؤسِّسُ لتفاعُـلاتٍ عَصْريّة، وفَهْمٍ لشُرُوطِ «النَّهْضَة العِلْميّة – التّقنيّة» ومُقَوِّمَاتِهَا.

٢) تَهْيئـةُ تُرْبَـةٍ خِصْبةٍ لإنْتاج عُلمـاءٍ، ومهاراتٍ، وكفاءاتٍ، قَـادِرَةً على المُمَارَسَةِ العِلْميّة والإبْدَاعِ التّقنيّ والمهارات الإنْتاجيّة؛ فـ«القَاعِدَةُ الجماهيريّةُ» العريضةُ المُتفاعِلَةُ – بحيويّةٍ – مع «الفِكْر العِلْميّ»، والمُتواصِلَةُ – بحماسٍ – مع «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، هي – بطبيعة الحال – مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَات. إنّ

من أبْرز نتائِج وجود هـذه «البيئة العِلْميّة» الجَادّة إسْهامها القويّ في اجْتِذَابِ «الأدْمِغَـة المُهَاجِرَة»، وهي مُشْكِلَةٌ تُعَانِي منهـا «المُجْتمعات العربيّة» بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وتُمَثِّلُ أحد التّحدّيات التي تَسْعَى هذه المُجْتمعات إلى التَّغَلُّبِ عليها.

٣) توفيـرُ «الشَّفَافيّـة العِلْميّة» التي تُيَسِّرُ على الفَرْدِ فَهْـمَ ماهيّةِ «الحركة العِلْميّة -التّقنيّة»، واسْتيعـابِ مُنْطلقاتِها، وامْتصاصِ تقْنياتِهـا؛ ليَسْتَفِيدَ منها الفَرْدُ أقْصى اسْتفادةٍ مُمْكِنَةٍ في حياته العمليّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، ويتعامل معها وفْق ضَوابِطِهَا وشُرُوطِهَا في مُمَارَسَةٍ رشيدةٍ ومَسْؤوليةٍ وَاعِية.

إنّ مُعْظَـمَ القـراراتِ الحَاسِمَةِ في «المُجْتمعات المُعَاصِـرَةِ» تَتَمَحْوَرُ حول قضايا عِلْميّـةٍ وتِقَنيّةٍ ابْتداءً من «ثُقْبِ الأوزون»، ومُـرُوراً بتَطْبيقات «الهنْدسة الوراثيّـة»، وانْتهـاءً بـ«أسْلِحَةِ الدَّمَـار الشَّامِل»، وتُؤثِّرُ هـذه القرارات في حياة الملايين مـن البشـر وفُرَصِهِمْ الوظيفيّـة ومُسْتوياتِهـم المعيشيّـة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِهـم وأوطانِهم. ولذا فإنّ مُشَارَكَتَهُمْ في اتِّخَاذِ القرار، وقُدْرَتَهُمْ على فَهْمِ المُشْـكلات وتَحْليلِهـا، وإسْهَامَهُمْ في طَرْحِ البدائِل وتَقْليـلِ الأضْرَار؛ كُلُّ ذلك يُصْبِـحُ أَمْراً ضَروريّاً مـن النّاحية الأخْلاقيّة والحضاريّـة والتّنْمَويّة، وتتنامى أهميّتُهُ مع ارْتفاع درجة الوَعْي السّياسيّ والرَّفاه الاقْتصاديّ.

٤) تَهْيئـةُ مُنَاخٍ من «الرّأي العامّ» مُتَعَاطِفٍ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُفْعَمٍ بالحماس والتّفاؤل والثّقَة، لمُجابَهَةِ الانْطباعات الانْفعاليّة، والعادات السّلْبيّة، والخُرَافَـاتِ الشّائِعَة، التي تُلَوِّثُ «ثقافة المُجْتمع»، وتُشَوِّهُ تفاعُلاته، وتعوقُ نُموّ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة»، وهو الحالُ الذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو، عندما وَصَـفَ حالة «عدم فَهْمِ العلوم» بأنّها: (تَمْنَـحُ - بشَكْلٍ أعْمق ممّا نَتَوَقَّعُ - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثّقافة التّقْليديّـة بِرُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوّلُ غَالِباً - وبشكْلٍ أكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم)[٣٢].

٥) «التَّطْويرُ النَّوْعيُّ» لتَفْكيرِ الفَرْد، وتَعْميقِ قِيمَتِهِ الذّاتيّة، وتَنْمية «الحِسّ العِلْميّ» لديـه، فعلى سبيل المِثـال: ما زالتْ «ثقافـةُ الأرْقَامِ والمَعْلُومَـات» غريبةً على

«العَقْـلِ العربـيّ»، وما زلنا نَقْـرَأُ ونَسْمَـعُ نِسْبَاً مِئويـةً تُلْقَى علـى عَواهِنِهَا في المَحَافِل ووسائلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّةً تُشَوَّهُ، أو تُبْتَرُ، دون رقيبٍ أو حسيب.

٦) رَفْعُ درجةِ الإسْهَامِ الاجْتماعيّ، وتعزيزُ «الفَاعِليّة الثَّقافيّة»، وتَحْسينُ مُمَارَسَاتِ المُجْتمع، بما تُضْفِيه مُعْطياتُ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» على الفَرْدِ من آفاقٍ مَعْرفيّـةٍ، ومهاراتٍ تِقَنيّـةٍ، وانْضِبَاطٍ عمليٍّ، وعَقْلانيّـةٍ مَسْؤولةٍ؛ فالحاجةُ إلى إحْدَاثِ «قَفْزَةٍ نَوْعيّةٍ» في «العَقْلِ العربيّ» في اتِّجَاهِ الانْضِبَاطِ العمليّ و«التّفْكير العِلْمـيّ» ليستْ مكان اخْتِلافٍ، وقد وَصَفَهَا مالك بـن نبيّ بقوله: (نحن أَحْوَجُ مـا نكونُ إلـى المَنْطِقِ العمليّ لأنّ «العَقْـلَ المُجَرَّدَ» مُتَوَفِّرٌ فـي بلادنا، غير أنّ «العَقْـلَ التَّطْبيقيّ» الذي يَتَكَوَّنُ في جَوْهَرِهِ من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨].

٧) جَعْـلُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» جُـزْءاً عُضْويّـاً ومُكَوِّناً رئيسـاً من مُكَوِّنَـاتِ «الثَّقافة الجماهيريّـة» السّائِـدَةِ لتَحْقيقِ شُـرُوطِ «المُعَاصَرَة» و«الكفـاءَة» و«التَّوَازُن»، ولتَأْصيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» في أعْمَاقِ «التّفاعُلات المُجْتمعيّة»؛ فنجاحُ الأنْشطة العِلْميّة، والمَشْرُوعات الإنْتاجيّـة، والجُهُود البَحْثيّة، مَرْهُونٌ بـ«إرادةٍ جماعِيّةٍ» وَاعِيةٍ تَدْفَعُ بها إلى الوَاجِهَةِ الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّة والفِكْريّة، وتتفاعلُ معها بحماسٍ وإيجابيّةٍ. وهنا تَبْرُزُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ودَوْرُهَا الحَاسِمُ في تَأْسيسِ «ثقافـة البَحْث العِلْميّ»، التي تُعَزِّزُ من مَكَانَةِ «العلوم والتّقْنية»، وتَفْهَمُ خَصَائِصَهَـا ومُتطلَّباتِها، وتتصدَّى – بحِكْمَـةٍ وموضوعيّةٍ وفَاعِليّةٍ – إلى «غُولِ البيروقراطيّـة» الـذي يَنْهَشُ في كِيان «المُجْتمعات العربيّـة»، ويُعَرْقِلُ «مسيرة التّنْمية»، ويَكْبَحُ «التَّفاعُل الإيجابيّ» مع أحْوال «الحياة المُعَاصِرَة».

٨) تَحْقيـقُ «الأَمْـن العِلْميّ» للمُجْتمع، وهو أَمْرٌ ذو أهميّـةٍ اسْتراتيجيّةٍ، ويَتَمَثَّلُ في قُـدْرَةِ المُجْتمع على اكْتِسَـابِ «المَعْرفة العِلْميّة»، وإنْتَـاجِ «التَّقْنيات الحديثة»، وتَنْميـةِ الإمْكانَـاتِ للتّطْويـرِ والتّطْويـعِ والإنْتـاج، وتَأْسيسِ آليّاتٍ قَـادِرَةٍ على توظيفِ المعـارِف بحيويّةٍ، والمُحافَظَةِ علـى المُكْتَسَبَاتِ بكفـاءَةٍ، ممّا يَتَطَلَّبُ

وَعْيـاً عِلْميّاً سَائِداً في جَنَبَاتِ المُجْتمع. إنّ «الأَمْنَ العِلْميّ» هو «البِنْيَةُ التَّحْتيّةُ» ذات القَاعِـدَةِ المُمْتَـدَّةِ والحَلْقَـاتِ المُتَرَابِطَةِ التي تُؤثِّرُ فـي كُلِّ أَوْجُهِ «الحياة المُعَاصِـرَة»، وتُحَـدِّدُ - بالضّـرورة - قُـدْرَاتِ الأُمّـة علـى تَعْظيـمِ مَوَارِدِهَا، وتوظيـفِ عُقُولِهَا، وتَرْسيخِ كِيَانِهَـا، وتَحْقيقِ غاياتِها. إنّ النَّظْـرَةَ المُتَأنِّيةَ إلى العَالَمِ الغَرْبيّ تُبَيِّن أنّ الغَرْبَ جعل من «البَحْثِ العِلْميّ» جُزْءاً جوهريّاً من أَمْنِهِ القومـيّ والوطنيّ؛ فقد رَبَطَ «البَحْثَ العِلْميّ» - بشَكْلٍ حيويٍّ ودَائِمٍ - بالنّواحي العَسْكريّـة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة، وبأَمْنِ الدَّولـة كُلِّها، وهذا ما ذَهَبَ إليه روبـرت ماكنمارا - وزير الدّفـاع الأمريكيّ الأَسْبق - بـأنّ: (الأَمْنُ القوميُّ هو التّنْميةُ ذاتُها)[٩٩]؛ ولذا فإنّ لنا وَقْفَةً أَشْمل مع «مَفْهُومِ الأَمْن العِلْميّ».

٧-٥) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن العِلْميّ»:

لا يُمْكِـنُ لقضايـا «الإصْـلاح» المُتَعَـدِّدَة، التـي يَطْرَحُهَـا السّياسيّـون والمُثقَّفون والمُفكِّرون بمُخْتلف توجُّهاتِهم وأَطْيافِهم، أنْ تَعْمَلَ خَارِجَ إطار زمَنها وتحدّيات عَصْرِهَا؛ ممّـا يَجْعَلُ قضيّة «الإصْلاح العِلْمـيّ» الرّكيزة الأساس التي تَنْطَلِقُ منهـا، وتَعْتَمِدُ عليها، كُلُّ تلـك الأَشْكَالِ المَرْجُوَّةُ من «الإصْـلاح»، والمُسْتَهْدَفَةُ من «برامِج التّنْمية»، فكما يقولُ عبد العزيـز التويجري فإنّ: (الإصْلاحُ مَنْظُومَةٌ مُتكامِلَةٌ من القِيَمِ والمبادئ والسّياسات تترابطُ عناصرُها، وتتكاملُ حَلْقَاتُهَا، ولكنّها جميعاً تقومُ على قَاعِدَةٍ عِلْميّةٍ عريضة)[١٠٢]. إنّ هذه المَقُولَةُ الصّائِبَةُ تعودُ بنا إلى «نُقْطَةِ البَدْء» لتُحَدِّدَ بوضوحٍ أولويّات المرْحلة التي تعيشُهـا الأُمّة؛ فبدون تلك «القَاعِدَة العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وبـدون ذلك الدَّفْعِ الفعّـالِ الذي تُوَلِّدُهُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي حيوات الأفْراد، وبدون ذلك «التَّرَاكُمِ الخِصْبِ» الذي تَصْنَعُهُ آليّاتٌ حَاذِقَةٌ على مسارات «الإنْجاز العِلْميّ - التّقنـيّ»، فـإنّ كُلّ الطُّرُوحَاتِ والتَّنْظيـراتِ والآمالِ والطُّمُوحَاتِ عـن «الإصْلاح» تَبْقَى مُجَرَّدَ سَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماء.

وهكـذا نجدُ أنّ مفْهُومَ «الإصْلاح العِلْميّ» يَنْبَغِي أنْ يكون على رَأْسِ القَائِمَة؛ لأنّه هو القَـادِرُ على توجيه «برامِج الإصْلاح» في مُخْتلف الميادين عبْر بَلْوَرَةِ قُدْرَاتِ المُجْتمعات، وتَعْزيـزِ مهـاراتِ الأفْراد، وتَطْويـرِ فِكْرِ الأُمّة. لقـد أَصْبَحَ من البدهيّـاتِ المَطْرُوحَةِ في «أدبيّات التّنْمية» المُعَاصِـرَةِ أنّ تَأْسيسَ «المُجْتمع العِلْميّ» هو المَطْلبُ الجوهريُّ لتَحْقيقِ الأَمْـن وتَطْويرِ القُدْرَاتِ وتَحْقيقِ الطُّمُوحَات، وهي قضيّـةٌ مُعَقَّدَةٌ يتشابكُ فيها «الفِكْريُّ» مـع «السِّياسـيّ»، وتتداخلُ فيهـا أطْيَافُ «الاجْتماعـيّ» و«الاقْتصـاديّ»، ويتقاطعُ عندها «الثَّقافيُّ» مـع «التّرْبويّ»، ولكنّنا نَسْتطيعُ أنْ نضعها جميعهـا ضمْن إطَارِ مُصْطلحٍ شَامِلٍ وحيويٍّ، هو مُصْطلح «الأَمْن العِلْميّ».

وأمّـا عندمـا نَسْتَعْرِضُ كُلَّ صُـوَرِ «الأَمْنِ» التـي تَتُوقُ إليها المُجْتمعـات، ابْتداءً من طُرُوحَـاتِ «الأَمْـن الكُلِّيَّة» كمفاهيـم «الأَمْـن الفِكْريّ»، و«الأَمْـن الاجْتماعـيّ»، و«الأَمْن القوميّ»، وانْتهاءً بطُرُوحَاتِ «الأَمْن الجُزْئِيَّة» مِثْل «الأَمْن المَائيّ» و«الأَمْن الغِذَائيّ»، فإنّنا نجدُ أنّها كُلَّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَصُبُّ في بَوْتَقَةِ «الأَمْن العِلْميّ» الذي يضع بين يدي الأُمّة مفاتيـح القُدْرَاتِ التّطْويريّـة والإنْتاجيّة والتّسْليحيّة والتّخْطيطيّـة، فيكون بذلك الوسيلة الوحيدة لتَأْمينِ الاحْتياجات القَائِمة، ومُجَابَهَةِ التّحدّيات المَفْرُوضَة.

٧-٥-١) مُقَوِّمَاتُ «الأَمْنِ العِلْميّ»:

لـو أردنا تَمْحيصَ مُقَوِّمَاتِ «الأَمْن العِلْمـيّ» وتَحْديدَ ركائزِه، فإنّنـا سنجدُ أنّها لن تَخْرُجَ في أُطُرِهَا العامّة عن ما يلي:

١) إشَاعَـةُ مُنَـاخٍ ثقافيٍّ عـامٍّ يتجاوبُ مـع «رُوحِ العَصْر»، ويَتَفَهَّـمُ ضُغُوطَ الزَّمن وشُرُوطَـه، ويُرَسِّخُ الحماس والاهْتمام بالعطاءات العِلْميّة والإنْجازات التّقنيّة؛ فعندمـا تَزْدَهِرُ «ثقافـةُ العِلْم» بين النّاس وتَتَغَلْغَلُ في «النَّسيـج الاجْتماعيّ»، تَضْمَحِلُّ تِلْقائيّاً «قَرَارَاتُ الجَهْلِ» المَبْنِيَّةُ على الحِسَابَاتِ الخَاطِئَة، والتَّوَهُّمَاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّرَاتِ النّرْجسيّة.

٢) توفيـرُ قَاعِـدَةٍ من المعـارِف العِلْميّـة، والبيانـات المُنْضَبِطَـة، والإحْصاءات الدَّقيقـة، في مُخْتلف المجالات الحياتيّـة؛ فصَانِعُ القَرَارِ والمُخَطِّطُ والبَاحِثُ يَحْتاجـون أوّلاً إلى المَعْلُومة الصّحيحة؛ لكي يكـون القَرَارُ سديداً، والتَّخْطيطُ سليماً، والبَحْثُ موضوعيّاً.

٣) تَكْوينُ قُدْرَةٍ ذاتيّةٍ على التّطْوير والتّطْويع والإنْتاج عبْر برامِج تَعْليميّةٍ وتَدْريبيّةٍ وبَحْثيّـةٍ لا تَغْـرَقُ فـي مُسْتَنْقَعَاتِ الإنْشائيّـاتِ الفَارِغَةِ والمُـدَاولاتِ التّنْظيريّةِ الجَوْفَـاء، ولكنّهـا تُصَافِـحُ عَصْرَهَا - بحزْمٍ وحيويّـةٍ - عبْر بَلْـوَرَةِ الأهْداف الجادّة، وانْتِقَاءِ المسارات العمليّة، وإطْلاقِ القُدْرَاتِ الكَامِنَة.

٤) تَأْسيسُ وتَفْعيلُ آليّاتٍ قَادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف المُتَاحَة، واسْتيعابِ التّطْوير المُنْجَـز، وتَعْظيـم المَرْدُودِ النّاتِجِ عبْـر مَشْرُوعاتٍ وطنيّـةٍ تُلَبِّي الاحْتياجات، وتَتَصَـدَّى للتّحديّات بأهْـدَافٍ لا تَشُوبُهَا ضبابيّةٌ في الطَّـرْح، وببرامِج تَحْتَرِمُ الوَقْت، وباسْتِخْدَامِ معايير نَاجِعَةٍ للمُرَاجَعَةِ والتّقْييم والتَّصْحيح.

٥) توفيـرُ مَنْظُومَـةٍ سليمـةٍ ومُتَكَامِلَةٍ من القِيَـم والمفاهيم التي تُسْهِـمُ في إثْرَاءِ «المَعْرِفَـةِ الفَرْديّـة»، ودَفْعِ الفَرْدِ إلـى الاطِّلاعِ والبَحْـثِ والتَّشْخيص، وتوسيعِ مَعَارِفِهِ ومَدَارِكِه، بشَكْلٍ يُمَكِّنُهُ من الإنْتاج المَعْرفيّ.

لعلّ المُشْكلة الكُبْرى التي تعوقُ بُرُوزَ مُصْطلح « الأَمْن العِلْميّ» بُرُوزاً وَافِياً شَافِياً في «المُجْتمعـات العربيّة» هي ضبابيّةُ المفاهيم السّائِـدَة، وهَيْمَنَةُ «ثقافة الكلام» المَأْلُوفَة، والانْتِكَاسُ إلى الشّكليّاتِ والإنْشائيّاتِ عند التّعامُلِ مع المُشْكلات، والخَوْفُ من المُبَادَرَاتِ التـي تُحَاسِـبُ على الإنْتاجيّـة وتَفْرِضُ الانْضِبَاط. تلـك الأسْباب، وغيرهـا كثيرٌ، جَعَلَتْ من مُصْطلـح «الأَمْن العِلْميّ» ضيفاً خَجُولاً على مَوائِدِ «الفِكْـرِ التّنْمَويّ» في «المُجْتمعات العربيّـة»، وراح كثيرٌ من المُفكّرين والبَاحِثيـن والمُخَطِّطين يتعاملون مع المُصْطلح على اسْتِحْياءٍ، ويَرْمُقُونَهُ عن بُعْدٍ بقَدْرٍ كبيرٍ من الوَجَلِ والتّوَجُّس، ليَرْتَدُّوا سِرَاعاً إلى ما أَلِفُوهُ مـن أفْكَارٍ ومفاهيم تَجْتَرُّ نفْسها اجْتِرَاراً، وتَرْتَعُ في ساحاتِ التّنْظيرِ المَقْهُورِ تحت وَطْأَةِ «إشْكَاليّة البُعْدِ الرَّمْكَانيّ» الذي تَطَرَّقْنَا إليها في أكْثر من مَوضِعٍ في هذا الكِتَاب.

إنّنا لا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْدٍ لكي نَلْمَسَ تَفَاقُمَ الخَلَلِ الذي يُعَانِي منه العَالَمُ العربيّ في «مَنْظُومَة الأَمْن العِلْمِيّ»، وتَمْتَدُّ جُذُورُ هذا الخَلَلِ - عبْر عَلاقَاتٍ مُتشابِكةٍ - إلى أنْمَاطِ «الحياة العربيّة» لتُؤسِّسَ لأسْقَامٍ تَفْتِكُ في «مَنْظُومَاتِ الأَمْن» الأُخْرى بأنْواعِها المُخْتلفة. إنّ غِيَابَ «الأَمْن العِلْميّ» يُهَدِّدُ أَمْنَ البَشَرِ وتَمَاسُكَ الحَجَرِ في الكِيان العربيّ؛ لأنّ هذا النَّوْعَ من الأَمْن يُمَثِّلُ «العمود الفِقْريّ» لـ«مَنْظُومَاتِ الأَمْن» الأُخْرى فيَصْبِغُهَا بلون العَصْر، ويَبْنِي هياكلَها بلَبِنَاتِ المرْحلة، ويَضْبِطُ إيقاعَها مع تحدّياتِ المُسْتَقْبَل. وأمّا إحْدى أبْرز الظّواهِرِ المُقْلِقَةِ في العَالَم العربيّ فهي أنّ الحديثَ عن التّخَلُّفِ لا يَتَوَقَّف، ووَصْفَ المُؤامراتِ المُوَجَّهَةِ إلى الأُمّة - المُتَخَيَّل منها والحقيقيّ - لا يَنْتَهِي، وتَفَاقُمَ المُشْكلاتِ في التّعْليم والإنْتاج والتّوظيف هو السِّمَةُ الأبْرز، ولكنّنا بعد أنْ نَمْنَحَ «العِلْمَ» و«التَّقَدُّمَ» و«ثَوْرَةَ المَعْلُومَات» زَخْمَاً كبيراً من الإنْشائيّات والشّكليّات، فإنّنا لا نَضْبِطُ أفْعَالَنَا ومُمَارَسَاتِنَا وطُرُوحَاتِنَا بالمقاييس العِلْميّة الأصيلة.

إنّ الوَاقِعَ الحزينَ يُؤكِّدُ أنّ حِسَابَاتِ «الأَمْن العِلْميّ» ما زالتْ في حاجةٍ إلى الكثير من التّدْقيقِ والمُرَاجَعَة، والحقيقةُ المُؤلِمَةُ تقول إنّ القُوّةَ الكَامِنَةَ وراء تفاعُلاتِ «الحياة المُعَاصِرَة» كانتْ آخر اهْتمامات مُجْتمعاتنا الحَائِرَة، وحتّى أولئك الذين وضعوها ضمْن أولويّاتِهم الخَطَابيّة والشَّكْليّة فَشِلُوا في تَفْعيلِهَا واحْتِضَانِ قِيَمِهَا ممّا نقلها إلى خَانَةِ «السَّهْل المُمْتَنِع». وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ فهي أنّ الأَمْرَ ليس خِياراً مَطْرُوحاً قد نَقْبَلُهُ أو نَرْفُضُه، ولكنّه «حَتْمِيّةٌ تاريخيّةٌ»، وقضيّة «حياةٍ أو موتٍ»، ممّا يَتَطَلَّبُ - في المقام الأوّل - «إرادةً سياسيّةً» تَدْفَعُ في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتَعْمَلُ على تَهْيئةِ «البيئة العِلْميّة»، وفَتْحِ الآفاق التّقنيّة، وتَشْجيعِ الاهْتمامات العِلْميّة، وتوجيهِ «ثقافة المُجْتمع» نحو احْتِضَانِ «الفِكْر العِلْميّ» والتّفاعُلِ معه بإيجابيّة. وهكذا نجدُ أنّ من المُهِمّ أنْ يَتَحَوَّلَ مُصْطلحُ «الأَمْن العِلْميّ» إلى رُؤيةٍ اسْتراتيجيّةٍ وآليّاتٍ فَعّالَةٍ ومُمَارَسَاتٍ مُتراكِمَةٍ تَنْقُلُ الفِكْرَ والأفْرَادَ والثّقافةَ والمُجْتمعَ إلى مُسْتوىً أكْثر اقْتراباً من مُتطلَّباتِ المرْحلة، وأقلَّ غُرْبَةً عن «شُرُوطِ العَصْر».

٧-٦) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن الفِكْريّ»:

مـن أبْرز قضايـا «المُجْتمعات العربيّـة» قضيّةُ «الأَمْـن الفِكْريّ» الـذي تَطْمَحُ هذه المُجْتمعـاتُ إلـى تَأْمينِه لضمـانِ نُضْجِ التّفاعُـلاتِ الفِكْريّة، وتَوَازُنِ المسيـرةِ الوطنيّة، وجَـدْوَى التَّلاقُحَاتِ الثّقافيّـة؛ وكُلُّها لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ بـدون التّواصُلِ مع «رُوحِ العَصْر» وفَهْـمِ مُقْتضياتِها. وهذا يعودُ بنا إلى «المُرَبَّعِ الأوّل» وهو «الكفـاءَةُ العِلْميّةُ» القَادِرَةُ على إشَاعَـةِ «فِكْر العَصْر» في البِيئة، وتوفير قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُنْتَمين إليه، وبطبيعة الحال كُلّما كَبُرَتْ تلك القَاعِدَة، ارْتَفَعَتْ نِسَبُ الإبْدَاعِ، وزَادَتْ الإنْتاجيّة، وتَأَصَّلَ «الأَمْنُ العِلْميُّ» في المُجْتمع، وتَحَقَّقتْ أسْبابُ «الأَمْنِ» بأنْوَاعِه.

إنّ قضيّـةَ «الأَمْن الفِكْريّ» في أيِّ مُجْتمعٍ قضيّةٌ مِحْوَرِيّـةٌ، وبدونها يُصْبِحُ المُجْتمع نَهْبـاً للقَلاقِل، ومَرْتَعَاً للارْتِجَال، وساحةً لكُلِّ نَاعِقٍ وحَاقِدٍ؛ فلا حضارة دون «أَمْنٍ فِكْريٍّ» يُرَسِّـخُ «هُويّة المُجْتمع»، ويَحْمِـي اسْتِقْرَارَهُ وعُنْفُوانَه، ويُبَلْوِرُ قِيَمَـهُ ومفاهيمَه. ولذا فإنّه لا غرابة فـي أنْ نَشْهَدَ عَقْدَ المُؤتمرات، واكْتِظَاظَ القاعـات، وتَحَدُّثَ الخُطباء، وإسْهَابَ المُفَوَّهِيـن، وتَشَبُّعَ الأرْفُـفِ العِلْميّة بأوراقٍ وبُحُـوثٍ وتوصياتٍ عن هـذا الأَمْر؛ فالقضيّةُ - ولا شـكّ - جوهريّـةٌ، والأَمْرُ جَلَلٌ؛ ولكن، يَنْبَغِـي أنْ نَسْأل: (هل يُمْكِـنُ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الأَمْـن الفِكْريّ» بمَعْزِلٍ عـن «العَصْر»، وخصائِـص تحدّياته، وطبيعة القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليه، والمُحَرّكَةِ لمساراته؟، وهل يجوزُ أنْ تَنْصَبَّ حِواراتُنا وسِجالاتُنا ودِراساتُنا على ما أَلِفْنَـاهُ من كلامٍ وخِصَامٍ وجِدَالٍ واجْتِرَارٍ، بينما تَبْقَـى مُقَوِّمَاتُ «الحياة الحديثة» غريبةً عـن سِيَاقِ التّفْكير، وغَائِبَةً عن صُلْبِ الطُّرُوحَات؟). إنّ السُّؤالَ بصِياغَةٍ أُخْرى هو: (هل بالإمْـكان التّعامُلُ مـع التّحدّياتِ المُعاصِـرَة، والنَّظَرُ إلـى «المُسْتَقْبَـلِ» دون اللجوءِ إلى تَأْسيـسِ «فِكْرٍ تَنْمَويٍّ» يُدْرِكُ أنّ أُصُولَهُ وجُذُورَهُ ومُقَوِّمَاتِه تَكْمُنُ في أعْمَاقِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وآليّاتِـه ووسائِلِـه ومُمَارَسَاتِه؟)؛ وإذا كان هناك إجْمَاعٌ على ضَـرورة مِثْل ذلك التّأْسيس لضمـان مُسْتَقْبَلٍ زَاهِرٍ لأجْيالٍ مُقْبِلَةٍ، فإنّ ذلك يَعْنِي أنّ طُرُوحَاتِ «الأَمْن الفِكْريّ» يَنْبَغِي أنْ لا تُهْمِلَ قضيّة «المُسْتَقْبَل»، ومُقَوِّمَاتِهِ المُعَاصِرَة، وتحدّياتِه المُتنامية.

لا أشكُّ لَحْظَةً في أنّ هناك قِيمَةً ذاتيّةً ومَقاماً فِكْريّاً لكُلّ ما تَطْرَحُهُ النّدواتُ والمُؤتمراتُ والمَحَافِلُ من دِراساتٍ وتأمُّلاتٍ ومُرَاجَعَاتٍ إلاّ أنّها تَفْتَقِدُ الحيويّةَ التي تَرْبِطُهَا بعَصْرِهَا، وتَدْفَعُ بها نحو «المُسْتَقْبَل»، وتُؤصِّلُ فيها تحدّياته، وتُوَطِّدُ في ثناياها مُعْطياتِه؛ فمن البدهيّ أنّ الخِطَابَ مهما كان مُنَمَّقاً، والطَّرْحَ مهما كان مُعَمَّقاً، فإنّه إذا لم يَتَمَكَّنْ من تَكْوين رَوابط حَيّةٍ مع وَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ في ساحةٍ عَالَميّةٍ مُتَغيِّرةٍ ذات تحدِّياتٍ مُتناميةٍ، فإنّ تَأْثيرَهُ وجَدْوَاهُ لن يتجاوزا - في أحْسن الأحْوال - عمليّةَ تَدْريبٍ عَقْليٍّ، وتَطْويرَ مَهَارَةٍ لَفْظيّةٍ، لتَبْقَى إشْكاليّاتُ الحياة المُتَجَدِّدَةِ على ما هِيَ عليه، وليَتَفَاقَمَ الأَمْرُ، وتَتَعَقَّدَ الأُمُور.

من المُهمّ أنْ نُذَكِّرك أنّ قضيّةَ «الأَمْنِ الفِكْريّ» مُرْتَبِطَةٌ جذْريّاً بـ«قضيَّة التّنْمية»؛ فـ«العَجْزُ التّنْمَويُّ» هو عدوُّها الأوّل، ولذا كان من المُهِمّ تَأْسيسُ «الفِكْرِ التّنْمَويّ» المُهْتَمِّ بـ«المُسْتَقْبَلِ»، والقَادِرِ على توليد قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعارِف تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها لتكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ «المُجْتمع» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتُعَمِّقُ اسْتِقْرَارَهُ وانْتِمَاءَهُ وتَنْميتَه، وذلك عبْر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» - فِكْراً وثقافةً وسُلُوكاً - في «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّة المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتَّسِقَةِ مع طبيعة مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مع تطلُّعاتِ أجْيالِها. إنّ تجاربَ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» تُؤكِّدُ أنّه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِدَةُ العِلْميّة - التّقنيّة»، ازْدَادَ النّشاطُ الفِكْريّ والاجْتماعيّ والثّقافيّ والإنْتاجيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَةَ في قُدْرَاتِه، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدِيَة، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْرَادِهِ معاني الانْضِبَاطِ والعمل والإبْداع، وتَحَرَّرَ مَنْسوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَعُ إلى حماقاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، وتُشْغِلُ أهْلَهَا بتَأْويلاتٍ فَاسِدَةٍ، ورُؤىً أَحَادِيّةٍ، ومفاهيم سقيمة. وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّ ابْتِعَادَ «المُجْتمع» عن «المَنْظُورِ التّنْمَويّ»، يَدْفَعُ به إلى التَّوَغُّلِ في إشْكالاتٍ تَنْظيريّةٍ، وجَدَلٍ عقيم، وصِراعاتٍ عَبَثِيّةٍ، وأوهامٍ بَالِيَةٍ، ليَسْقُطَ «المُجْتمعُ» في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً -. ولذا كان لِزَاماً أنْ تُؤسِّسَ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تكون الرَّكيزةَ الصَّلْدَةَ لـ«الأَمْنِ

الفِكْريّ»؛ ولذا كان لِزَاماً – أيضاً – على مراكزِنا البَحْثيّة، ومؤسَّساتِنا الفِكْريّة، ومعاقِلِنا العِلْميّة، أنْ تَبْحَثَ مَلِيًّا في أُصُولِ هذه «الثَّقافة التّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها وآليّاتِها.

٧-٧) «الثّقافة العِلْميّة» و«الأَمْن الوطنيّ»:

أنّ «الأَمْـنَ الوطنـيّ» كُلٌّ لا يَتَجَزّأ، وهـو مَفْهُومٌ شَامِلٌ ذو أبْعَادٍ مُتَعَـدِّدَةٍ وآفاقٍ رَحْبَةٍ فـي عَصْرٍ تَعَقَّدَتْ أدواتُـه، وتسارعتْ مُتَغيِّرَاتُه، لتُصْبِحَ «القضيَّـةُ الأَمْنيّةُ» – في مُجْمَلِهَا – قضيّـةً يتشابكُ حولها «العَسْكريُّ» مع «السّياسـيّ»، وتتداخلُ فيها أطْيَافُ «الاجْتماعيّ» و«الاقْتصاديّ»، ويتقاطعُ عندها «العِلْميُّ» مع «الثّقافيّ»، ويتلاقحُ في رُبُوعِهَا «الفِكْريُّ» مع «الإعلامـيّ»، ممّا يَفْرِضُ علـى القائمين عليها ليس فقط الاهْتمـام بالقضاء على تَشَتُّتِ الجُهُـود، وغِيَابِ التّنْسيق، وارْتِجَالِ القرار، وضَعْفِ الأداء، والخَلْخَلَةِ في معاييرِ التّقْويم، ولكـن – أيضـاً – اسْتِشْـراف «المُسْتَقْبَل» – بـكُلِّ مُقْتضياتِه ودعاماتِـه ومُتَطلَّباتِه – عبْر مَنْهَجِيّةٍ موضوعيّةٍ تُدْرِكُ طبيعة «العَصْر» وضُغُوطه، وتَسْتَوْعِبُ أبْعاده ومُتَغيِّراته.

لـذا نَسْتطيعُ أنْ نقولَ إنّ «الأَمْنَ الوطنيّ» ليس قضيّـةً عَسْكريّةً بَحْتَةً، أو اخْتصاصاً أَمْنيّـاً مَحْضـاً، ولكنّـه – في المقـام الأوّل – «قضيّةٌ تَنْمَويّـةٌ» بامْتيازٍ تَسْتَدْعِـي – أوّل ما تَسْتَدْعِـي – تَأْسيسَ رُؤيـةٍ اسْتراتيجيّةٍ مُتَكامِلَةٍ وتَطْويرَهَا وتَقْييمهـا بشَكْلٍ دَائِب، وتوفيرَ الدِّراسـات العِلْميّة المُنْضَبِطَـة، وتَحْليلَ الأوضاع المحليّة والظُّـروف الدّوليّة، ومُراجَعَةَ التّطـوُّراتِ والمُسْتَجِدَّات، وبَلْوَرَةَ الآليّـاتِ والبرامِج والخُطَطِ القَادِرَةِ على حِماية مَصَالِحِ البـلاد الأَمْنيّـة والسّياسيّـة والاجْتماعيّـة والاقْتصاديّـة والعَسْكريّة، وتوظيـفَ المَوارِدِ والإمْكانَاتِ لإحْدَاثِ «النَّقْلات النَّوْعِيّة» على مُخْتلف الأَصْعِدَة.

وهكذا نجدُ – مَـرَّةً أُخْرى – أنّ «قضيّة التّنْمية» تَفْرِضُ حُضُورَهَا، بمُخْتلف أبْعَادِهَا العِلْميّة والتّقنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة والعَسْكريّة، لتكون «مَرْبَطَ الفَرَسِ» في قضيّة «الأَمْنِ الوطنيّ»، ونَسْتطيعُ هنا أنْ نَتَعَرَّفَ في الحال على «الإشْكَالِيّةِ» التي يَنْبَغِي أنْ تتصـدَّى لهـا مُخْتلفُ المؤسَّسَـاتِ المَعْنِيَّةِ بتلك الجَوانِب، وهي تَتَمَثَّـلُ في ضَعْفٍ – أو

انْعِـدَام – أدوات الاتّصال والتّفاعُـل والتّنْسيق بين أطْـرَاف «المَنْظُومَة الوطنيّة»، وعدم التّرْكيـز على تَطْويـرِ خِبْـراتٍ مُشْتَرَكَةٍ علـى أصْعِدَةِ توظيـفِ المَوارِدِ وتوحيـدِ الجُهُود، والصُّعُوبَـةِ المُتَفاقِمةِ في تَرْجَمَةِ الأهْدَافِ والخُطَطِ إلى وَاقِـعٍ عمليٍّ، وحركةٍ فَاعِلَةٍ تَدِبُّ على الأرْض.

من هذا المُنْطَلَقِ، يَنْبَغِي أنْ تُصْبِحَ «إشْكَالِيّةُ التّنْمية» من أبْرز هُمُوم «الأَمْنِ الوطنيّ» مُصْطَحِبَـةً معهـا – بالضّرورة – كُلَّ تداعياتِهـا الثّقافيّة والعِلْميّـة والتّقنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّـة. وبالرّغْـم من كُلِّ ذلك التَّدَاخُـلِ والتَّشَابُكِ في تَرْكيبـةِ «الأَمْنِ الوطنيّ» إلاّ أنّـه يَنْبَغِـي له أنْ يَسْتَقِرّ علـى أرْضٍ صُلْبَة، وأنْ يَنْطَلِـقَ من قَاعِدَةٍ مُتَمَاسِكَـةٍ تَسْتطيعُ أنْ تَضُمَّ عَنَاصِرَهُ المُتَنَوِّعَة، وتَسْنُدَ مُقَوِّمَاتِهِ المُخْتلفة، وفي عَصْرِ «العلوم والتّقْنية» فإنّ تلك «البِنْيَـةَ التَّحْتيّة» الصّلْـدَةَ لا يُمْكِنُ لها إلاّ أنْ تكون من جِنْـسِ عَصْرِهَا، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع تحدِّيات زمانِها.

٧- ٨) «الثَّقافة العِلْميّة» و «الأَمْن الاجْتماعيّ»:

إنّ «الأَمْنَ الاجْتماعيّ» هو أَحَدُ مفاهيم «الأَمْن» الذي يَنْتُجُ عن توفير «الأَمْنِ العِلْميّ» إلاّ أنّنـا آثرنـا أنْ نُفْـرِدَ له مَبْحثاً خاصّـاً لأبْعَادِهِ المُهِمّـةِ في حياة الأُمم بعامّـةٍ، ولدَوْرِهِ الحَاسِمِ في الوَاقِعِ العربيّ الرّاهِنِ بخاصّة.

تُبَيِّـنُ القِـرَاءَات الاجْتماعيّة – فـي عُمُومِهَا – أنّ الفَشَلَ في «التّنْميـة» هو أَحَدُ أبْرز الأسْبـاب التـي تَقْضِي على التَّمَاسُـكِ الوطنيّ، وتُفَاقِـمُ الاخْتلافات الإثنيّـة والطّائفيّة، وتَتَخَلَّقُ في ظِلِّهَا كِياناتٌ صغيرةٌ مُتَصَارِعَةٌ فتَحْتَمِي كُلُّ فِئَةٍ بأنْصَارِهَا، وتُلْقِي باللوم للكَارِثَةِ التّنْمَويّـةِ والفَشَلِ الحياتيّ على الفِئَـاتِ الأُخْرى. وفي الوَقْت نفْسه فـإنّ وجود اسْتِقْطَابٍ دَاخِـلَ المُجْتمعِ الوَاحِدِ بين ثقافـاتٍ مُتباينةٍ سَبَبٌ جوهريٌّ لحـالات «التّوَتُّرِ الاجْتماعيّ» وتَفَاقُمِ «إشْكَاليّة التّنْمية»؛ فوجودُ فِئَاتٍ تَخْتَلِطُ لديها «الأَبْعَادُ الزَّمْكَانيّةُ» فتَبْتَعِدَ عن «رُوحِ العَصْـرِ» وفَهْـمِ مُعْطيات «الزَّمَـن»، وأُخْرى تَسْعَى – بحماسٍ أو حماقـةٍ –إلى التّفاعُلِ مع

مُتَطلَّبَـاتِ «الزَّمَن» ومُوَاكَبَـةِ مُسْتَجِدَّاتِهِ دون تَمْييزٍ لخصائص «المـكان». كُلُّ ذلك يَضَعُ ضُغُوطـاً على «التّرْكيبة الاجْتماعيّة»، ويقودُ إلى حالةٍ من «عدم التّوَازُن»، ممّا يَنْتُجُ عنه – بالضّـرورة – «اضْطِرَابٌ فِكْريٌّ» يجدُ له تَجَلِّيَاتٍ وانْعكاساتٍ على وَاقِعِ المُجْتمع وعَلاقَاتِهِ المحليّـة والدّوليّة، وهذا ما يُنَبِّهُ إليه «التّقْريـر العَالَميّ لمُنَظَّمَةِ اليونسكو» – الصّادر في عـام ٢٠٠٥م – حيـث يقول: (إنّ الشَّـرْخَ المَعْرفيّ الذي يَفْصِلُ البلـدان الأكْثر حظْوةً عن البلـدان النّامية، وبخاصّةٍ البلدان الأقلّ تقدُّماً قد يتفاقم، بينما تَظْهَرُ ضمْن المُجْتمعات نفْسهـا شُرُوخٌ بالعُمْقِ ذاتـه أو تَتَوَسَّع. كيف إذاً لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة» المُسْتقبليّة أنْ تَقْبَلَ أنْ تكـون مُجْتمعـاتٍ مُفَكَّكَـة؟. إنّ دَوْرَ التَّخْطيطِ المُسْتقبلـيّ هو ألاّ يُسْتَخَـفّ بالتَّوَتُّراتِ والأخْطَـارِ المُسْتقبليّة باسْم نَزْعَةٍ تفاؤليّةٍ تَقْليديّـة)[٨٣]. ومن المُهِمّ أنْ نَلْحَظَ – في هذا المقـام – العَلاقَةَ العُضْويّةَ بين مُخْتلف أنْواع «الأَمْـن» والتّأْثيراتِ المُتَبَادَلَةَ بين عَنَاصِرِهِ المُتَنَوِّعَـةِ، إلاّ أنهـا كُلّها تَخْضَعُ لظُرُوفِ العَصْـر، ويُشَكِّلُهَا مُنَاخُـه، وتَتَحَكَّمُ في حركتِها طبيعـةُ «المَعْرِفَةِ السَّائِدَةِ» وحَجْـمُ ذلك «الشَّرْخِ المَعْرفيّ» بين أرْكَانِـه، ومن الوَاضِحِ أنّ لـ«إشْكَاليّـةِ التّنْميـة» دَوْراً حَاسِماً في درجـةِ تَمَاسُكِ «مَنْظُومَةِ الأَمْـن»، ومدى قُدْرَةِ هذه «المَنْظُومَةِ» على تَحَمُّلِ ضُغُوطِ «العَصْرِ» والتّعامُلِ مع تحدّياتِه.

٧-٩) «البَنْدُولُ الفِكْريّ و«نُقْطة التّوازُن»:

ليسـ خَافِياً على أحدٍ درجة تَأْثيـر «العوامِل الفِكْريّة» في اسْتِقْرَارِ المُجْتمعات، ولذا كان التّـلازُمُ وَاضِحاً بين «الأَمْنِ الفِكْريّ» و«الأَمْنِ الاجْتماعيّ». وأمّا «الشَّرْخُ الفِكْريُّ» في المُجْتمع، وما يُصَاحِبُهُ من تَحَوُّلاتٍ وتَشَوُّهاتٍ وانْتِقَالٍ من النَّقيضِ إلى النّقيض، فهو أَمْرٌ شبيـهٌ بـ«البَنْدُولِ الفيزيائـيّ» المُتَذَبْذِبِ الذي يَهْتَزُّ حول مَوْقِـعِ تَوَازُنِهِ من أقْصَى اليمين إلـى أقْصَى الشّمال؛ ونجدُ أنّه في حالة الحركة في فَرَاغٍ، فإنّ هذا التّذَبْذُبَ يُحَافِظُ على حركتِـه ويُوَاصِلُ اهْتزازاتِه دون تَوَقُّفٍ، وأمّا في حالة وجود وَسَطٍ يُعِيقُ الحركة، فإنّ مدى التّذَبْذُبِ يَضْمَحِلُّ تدْريجيّاً حتّى يَتَوَقَّفَ «البَنْدُولُ» عند «نُقْطَةِ التّوَازُن»، وكُلّما زادتْ كثافةُ «الوَسَطِ»، كان الاضْمِحْلالُ أكْبر، وبُلُوغُ «التَّوَازُنِ» أسْرع.

إنّ تَطْبيـق هـذا المِثَالِ الفيزيائيّ على «الحالـة الفِكْريّة»، يقودُ مُبَاشَـرةً إلى الدَّوْرِ الحَاسِـمِ لـ«الثَّقافـة السَّائِـدَة»، فهـي ذلك «الوَسَـطُ» الذي يُمْكِنُ لـه أنْ يُعِيـقَ التّذَبْذُبَ والتّطَـرُّفَ في «البَنْدُولِ الفِكْريّ» إذا توافرتْ لهذه «الثَّقافة» الخَصَائِصُ المُنَاسِبَة؛ فكُلّما زَادَتْ كثافتُهـا المَعْرفيّـة وقُدْرَاتُهَـا التّحْليليّة ومُمَارَسَاتُهَـا العِلْميّـة وإنْجَازَاتُهَا العمليّة، اسْتطاعـتْ أنْ تُؤثِّرَ في تلـك الارْتجاجات فيَثْبُتُ «البَنْدُولُ الفِكْـريّ» تدْريجيّاً عند «نُقْطَة التَّـوَازُن»، أو يَتَذَبْـذَبُ حولها تَذَبْذُباً ضئيلاً – بسبب مُؤثِّـراتٍ خَارِجيّةٍ مَحْدودة التّأثير – لتتَّسِمَ أوضاعُ المُجْتمع بـ«الوَسَطِيّةِ» والاعْتِدَالِ والعَقْلانيّة.

وأمّـا البَحْثُ عن «نُقْطَـةِ التّوَازُنِ» في «البَنْـدُولِ الفِكْريّ» للعَالَـمِ العربيّ فيعود إلى قُـرُونٍ طويلةٍ مَرَّتْ بها الأُمّـةُ باضْطِرَابَاتٍ فِكْريّةٍ وتَقَلُّبَاتٍ اجْتماعيّـةٍ وإخْفَاقَاتٍ سياسيّةٍ وهَزَائِـمَ عَسْكريّةٍ وكَـوارِث اقْتصاديّةٍ، ويَتَجَلَّى التَّحـدِّي في أقْسَى أشْكَالِـهِ ونحن نَدْلِفُ إلـى العُقُـودِ الأولى من «الأَلْفيّة الثّالثـة»، ومن الوَاضِحِ – انْطلاقاً مـن الطّبيعة المَعْرفيّة لهـذا العَصْـر – أنّ «نُقْطَـةَ التَّوَازُنِ» لـن تَتَحَقَّقَ إلاّ فـي «وَسَطٍ مَعْرفيٍّ» كثيـفٍ تقومُ فيه «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ» بدَورٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِز. مِثْلُ ذلك «التَّوَازُنِ» – في حالة «البَنْدُولِ الفِكْريّ» – يُحَقِّـقُ أبْرز ما يَحْتَاجُهُ «الأَمْنُ الاجْتماعيُّ»، وهو «عُنْصُـرُ التَّسَامُحِ» الذي يَتَحَقَّقُ عبْر ما أَسْميناه «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ» (انظر: الفَصْل الرّابع)؛ فتتلاقى التّياراتُ الوطنيّةُ والمَشَارِبُ الاجْتماعيّـةُ حول «قضايـا تَنْمَويّةٍ» تَجْمَعُ كِيانَهُـمْ، وتُثْري وجودَهم، وتَخْـدِمَ ازْدهارَهم، فكما يقولُ محمد جابر الأنصاري: (إنّ التَّسَامُحَ مُمَارَسَةٌ عمليّةٌ بالدّرجة الأولى وحَصِيلةٌ لأسبابٍ موضوعيّةٍ قبل أنْ يُصْبِحَ قِيمَةً مُجَرَّدَة)[٢١].

إنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» – في هذا السِّياق – الدَّوْرَ الأبْرَزَ في مُعَالَجَةِ «إشْكَاليّة الفَجْوَةِ المَعْرِفيّة» دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد؛ ففي عَصْرٍ تَتَّسِعُ فيه «الهُوّةُ المَعْرِفيّةُ» بين «المُجْتمعات النَّامية» و«المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»، فإنّ الضُّغُوطَ تَزْدَادُ على «المُجْتمعات النَّامية»، وتكون هنـاك فِئَاتٌ تَمَكَّنَـتْ لأسْبابٍ عِدَّةٍ من فُرَصِ التَّعَلُّم ووَسَائِلِ الاتّصـال الحديثة ومُوَاكَبَةِ عُلـومِ العَصْـرِ وتطوُّراتِـه، بينمـا بَقِيَتْ فِئَـاتٌ أُخْرى خَارِجَ هـذه التّفاعُلات؛ ممّـا يَنْجُمُ عنـه اضْطِـرَابٌ مُجْتمعيٌّ؛ وهنا تقـومُ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» بتوسيع دَائِرةِ «نَشْـرِ المعْرِفَة»،

واسْتِقْطَـابِ الحماس للعلـوم المُعَاصِرَة، وتوفيرِ «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» عبْر تَقْريبِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ وتوحيدِ الرُّؤيةِ نحو العَصْرِ وأدواته ومُتَطلَّباته، وفَهْمِ مُقَوِّمَاتِ «التّنْمية» وتحدّياتها. من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ من شَأْنِ «الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تُسْهِمَ في تَهْيئة تلك «البِيئة التّنْمويّة» القَـادِرَةِ على تَنْظيمِ الفِكْر، وتَهْذيبِ الغَرَائِـز، وصَقْلِ الدَّوافِع، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَمِ ووسائلِـه ومُقْتضياته، وهي شَـرْطٌ لازِمٌ لتَأْميـن «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» و«الالْتِقَاءِ الفِكْريّ» لتَحْقيقِ «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ الأَنْمَاطِ الاجْتماعيّة والأَشْكَالِ المُؤَسَّسِيّـةِ القَادِرَةِ على التّفاعُلِ - بإيجابيّةٍ - مع طُوفـان «الثَّوْرَةِ المَعْلُوماتيّة» وتحدّيات «ظَاهِرَةِ العَوْلَمَة»، وهذا ما أَكَّدَتْهُ «مُنَظَّمَةُ اليونسكو» في عام ١٩٩٤م بقولها: (إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة والتِّكنولوجيّة» حاجةٌ عَالَميّةٌ لكي لا يَتَغَـرَّبَ النّاسُ عن مُجْتمعهم، ولكي لا يكونوا مُرْبَكِين وضعيفي المَعْنويّاتِ بسبب التَّغْيير)[٩٩]. وفي هذا الصَّدد يرى عبد الله القفاري أنّ: (أكْبر المكاسب من نَشْرِ «ثقافة التَّفْكير العِلْميّ» هي بِنَاءُ جُسُورٍ بين «العِلْم» و«الوَعْي الاجْتماعيّ»، وإعادةُ صِياغَةِ العَقْلِ وفْق مَنْظورٍ عِلْميٍّ غير قَابِلٍ للاسْتِلاب، بَلْ ربّما نَذْهَبُ بعيـداً لنقول بأنّـه حتّى مُوَاجَهَة بعض الظّواهِر التي يُعَانِي منهـا عَالَمُ اليوم كالإرْهَابِ أو التَّطَـرُّفِ أو النَّزْعَـةِ الجماهيريّةِ الغَوغَائيّةِ لـن تكون بنَشْرِ الدِّيموقراطيّـة وَحْدَهَا، إنّها أيضـاً في اسْتِعادة عَقْلِ إنْسانٍ من بَرَاثِـنِ الأَسْرِ الفِكْريّ ليكون عَقْلاً عِلْميّاً لديه المَقْدِرَةُ علـى الفَحْصِ والاسْتِشْـكَالِ والقَبُولِ والرَّفْض، وحينها سيكون من الصّعْـبِ تَطْويعُ هذا «العَقْلِ» لصَالِح مَشْروعٍ غير قَابِلٍ للحياة وغير مُتَمَاسِكٍ ووخيم النّتائج)[١٤].

٧-٩-١) «مَلَفّ الإرْهَاب» كمِثالٍ:

لقـد هَيْمَنَـتْ إشْكاليّاتُ «ظَاهِـرَةِ الإرْهَاب» علـى العَالَمَيْن العربـيّ والإسْلاميّ في العُقُـودِ الأخيـرة، واسْتَفْحَـلَ أَمْرُهَـا لتُصْبِـحَ ظَاهِـرَةً مُؤَرِّقَةً تَسْتَهْـدِفُ العُقُـولَ الغَضّةَ والمُكْتَسبـاتِ الوطنيّـة، وتُهَدِّدُ بـكُلِّ الرُّعُونَةِ والحَمَاقَـةِ أَمْنَ الوطـن ومُسْتَقْبَلَ المُواطِن، واسْتُنْفِرتْ لمُحاربتِهـا ومُكافحتِها الجُهُودُ الأمنيّةُ والمُعَالَجَاتُ الفِكْريّة. إنّ الوقوف أمام هـذه الظَّاهِـرَةِ المُزْرِيةِ - بتَرْكيبتِهـا المُعَقَّدَةِ وتفاعُلاتِهَـا المُتَشَابِكَةِ - يُؤَكِّـدُ أنّ «الحَلَّ

الأَمْنـيّ» ليس إلاّ حَلاًّ مُؤَقَّتاً يُعَالِجُ نتائج الظّاهِـرَةِ ويتصدَّى لأعْرَاضِهَا، ولكنّه لا يَسْتطيعُ أنْ يتعامـل بعُمْـقٍ مـع أسْبَابِهَا ودَوافِعِهَا؛ ولذا فإنّـه يَنْبَغِي عدم إهْمَـالِ الأدْوار المِحْوَرِيّة لـ«مُؤسَّسَـات المُجْتمـع» المُخْتلفة في عِلاجِ هذه الظّاهِـرَةِ والتّخْفيفِ من وَطْأَتِهَا - إنْ لم يكنْ اسْتئصالها -.

إنّ «المُعَالَجَةَ الفِكْريّـة»، وهي الأبْرز بين التّحدّيات القَائِمَة، تَحْتَاجُ إلى إسْتراتيجيّةٍ عميقةِ الجُذُورِ ووَاضِحَةِ الملامِحِ، وتجدُ تَرْجَمَتَهَا على أرْضِ الوَاقِعِ في آليّاتٍ قَابِلَةٍ للتّطْبيق والتّقْييـم والتّطْوير، ومهما شَرَّقَتْ هذه الإسْتراتيجيّةُ أو غَرَّبَتْ، فإنّها - في نهاية المطاف - ستَلْتَـفُّ - بالضّرورة - حول عِدّة مَحَاوِر جوهريّةٍ، ومن أبْرزها مِحْوَرُ «الثَّقافة العِلْميّة»، حيـث لا منـاص مـن الاعْتِرَافِ بأنّ «المُنَـاخَ الفِكْريّ» في «المُجْتمعـات العربيّة» في حاجةٍ إلـى «تَحَوُّلاتٍ كيفيّةٍ» تُوَائِمُ بين بِيئتِه وبين صُوَرِ «الحياة المُعَاصِرَةِ» وتحدّياتِها المُتَجَدِّدَة. إنّ مِثْـلَ هـذا التَّـوَاؤُم المَطْلـوب لا يَتَحَقّقُ بتلـك الأساليب السَّطْحيّـةِ الهَشَّةِ التـي تَعْتَقِدُ أنّهـا باسْتِفْزَازِهَا للمُجْتمع، وتَعْرِيضِهَـا بقِيَمِه، وتحدِّيها لمُسَلَّمَاتِه، سـوف تَنْقُلُهُ إلى قِمّةِ السِّلْـمِ الوطنيّ والتّقدُّمِ المَعْرفـيّ والازْدِهَارِ الاجتماعيّ، فالعَكْسُ هو الصّحيحُ، فمِثْلَ هذه الأساليـب الفَجَّـةِ هي - في المقام الأوّل - أبْعد ما تكون عن فَهْمِ «رُوحِ العَصْرِ»، ومُقَوِّمَاتِ القُوّةِ، وعَنَاصِرِ التّمْكين، وهي التي - في نهاية المطاف - تُوَلِّدُ من «رُدُودِ الفِعْلِ» ما يَصُبُّ في قناة «الإرْهَاب»، ويُمِدُّ دُعَاتَهُ من الحَمْقَى بأوراق التّحْريضِ وصرخات التّمَرُّد.

إنّ القـول بأنّه - عند التّعامُل مـع «مَلَفِّ الإرْهَابِ» - يَنْبَغِي عدمُ إغْفَالِ دَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في حياة المُجْتمع وتفاعُلاته، هو تَأْكيدٌ لحقيقةٍ فِكْريّةٍ وحياتيّةٍ وثقافيّةٍ واجْتماعيّةٍ تَفْرِضُ ضُغُوطَهَـا ومُقْتضياتِهـا بشَكْلٍ يتنامـى مع تسـارُعِ «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»، واتِّسَـاعِ «الفَجْوَةِ المَعْرِفيّة» بيـن أولئك المَأْسُورين لـرُدُودِ الفِعْـلِ الوِجْدانيّة والانْفعاليّة والكلاميّـة، وبين أولئك المُنْطَلِقين في آفاق الإنْجـاز التّقنيّ والازْدهار المعيشيّ والتّفوّق العِلْمـيّ والأَمْن الوطنـيّ. لا بُدَّ أنْ نُدْرِكَ أنّ المُشْكلة الأساس فـي «مَلَفِّ الإرْهَابِ» مُشْكِلَةٌ فِكْريّـةٌ - ثقافيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن طُوفَانٍ من المُتَغيِّـرَاتِ المُتسارِعَةِ التي تكالبتْ مع رَوَاسِب تاريخيّـةٍ وانْفعالاتٍ كَامِنَةٍ لم تُفْلِحْ الأُمّة في التّخَلُّصِ منها عبْر قُرُونٍ؛ لتَدْفَعَ على طريق

الهـلاك بعناصِر شَابّةٍ لديها الحماس والطّاقـة والطُّمُوح، ولكنّها افْتَقَدَتْ الرُّؤية ليَخْتَلِطَ عليهـا «الزَّمَان» و«المكان»، وتَصْطَدِمَ في دَواخِلِها مَشَاعِرُ الرّغْبَةِ في الإنْجاز والتّفوّق مع هجماتِ الإحْبَاطِ والاغْتِرَابِ عن العَصْر، لتكون المُحَصِّلَةُ ذلك «الإرْهَابيّ» الذي لا يَرْعَى إلاًّ ولا ذِمّة، ولا يَتَوَرَّعُ عن سَفْكِ الدِّماء وحَصْدِ الأرْواح.

نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ الظّاهِرَةَ في إطَارٍ أبْرز، عندما نضعُها في سِيَاقِ محاولات «النّهْضَة» التي عَجِزَتْ الأُمّةُ - عبْر أكْثر من قَرْنَيْنِ - عن تَحْقيقِهَا لتَتَكَرَّرَ الكَوارِثُ بأشْكَالٍ مُخْتلفةٍ، ونَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَمَهَـا عندما نُـدْرِكُ أنّها جُزْءٌ مِحْوَرِيٌّ من فُقْـدَانِ «التَّوَازُن» الذي أصاب الأُمّـة عندما اضمحلَّ دَوْرُهَـا الرّياديّ، ودخلتْ في متاهاتِ التَّخَلُّـفِ والهزيمة، وهذا هو الحـال الذي يَصِفُهُ مالك بن نبيّ عندما يقول: (لـو أنّنا حَلَّلْنَا حياة مُجْتمعِنا لوجدنا فيه ألْواناً جديدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهَا على نَزْعَاتٍ مُتباينةٍ واسْتِعْدَادَاتٍ فَرْديّةٍ مُتَنَافِرَةٍ في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوَازُنَهُ القديم ويَبْحَثُ الآن عن تَوَازُنٍ جديد)[٢].

ممّا سَبَـقَ يَتَّضِحُ أنّ تَحْقيقَ «الأمْن» بأنْواعِهِ المُختلفـةِ وشُـرُوطِهِ المُعَاصِرَةِ يَتَطَلَّبُ تفاعُـلاتٍ مُجْتمعيّـةً مُتَوَافِقَةً مع زمنِهـا، وأنْسَاقاً ثقافيّـةً مُتَّسِقَةً مع طبيعـةِ مُشْكلاتِها، ومـدارِك مَعْرِفيّةً مُتَنـاغِمَـةً مع تطلُّعات أجْيالِها؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتَطفِّلاً ثقيلاً على مَوائِد الآخَرين تُعَانِي من حالة الانْبِهَارِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ بعض جماعاتِها إلى حَمَاقَاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَا، ولكنّها تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْرَاتِهَا بثِقَةٍ وعَقْلانيّـةٍ وتفاؤلٍ حيث يرى ديفيد رزنيك أنّ: (مـن الأرْجَح أنّ الجُمْهُورَ «المُثقَّف عِلْمِيّاً» يَتَّخِذُ بصُورةٍ جَيّدةٍ قراراتٍ وسياساتٍ أفْضل من التي يَتَّخِذُهَا جُمْهُورٌ جَاهِلٌ عِلْمِيّاً)[٩٨].

أمّـا «النَّقْلَـةُ المَطْلُوبَـةُ» فتَكْمُنُ في التَّغَلُّـبِ على حالة «الاغْتِرَابِ» عـن العَصْرِ التي تُسْهِـمُ في تَأْصيلِ كثيرٍ من حالات المَيْلِ إلى العُنْف، وتُعَمِّقُ مشاعِر العُزُوفِ عن «التَّعامُلِ الإيجابـيّ» مـع «مُتَطَلَّبَاتِ العَصْرِ» عبْر الانْعِزَالِ أو الانْغِـلاقِ أو الانْكِفَاء، ومن ثمّ الهُرُوب مـن تحدّياته إلى وَسَائِـلِ التّدْمير. إنّ انْعِدَامَ القُـدْرَةِ الذّاتيّةِ على التّعامُـلِ مع «مُكَوِّنَاتِ العَصْـرِ» الحيويّـة، أو الجَهْلَ بكُنْهِهَـا وطبيعتِها، أو الرّهْبَةَ من مُعْطياتِهـا ونتائجِها؛ كُلُّها

أُمُـورٌ كفيلةٌ – في كثيرٍ من الأحْيان – إلى دَفْـعِ بعْضهم إلى نَزْعَةٍ ارْتِدَادِيّةٍ كَاسِحَةٍ تُهَيْمِنُ علـى الوِجْدَانِ، وتُغَيِّبُ العَقْلَ، وتُرَسِّـخُ الإحْبَاط. وأمّا إذا أَدْرَكْنَا مـدى عُنْفُوان «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّـة للحركـة العِلْميّة والتّقنيّة» (انْظـر: الفَصْل السّادس)، وما تُبَلْـوِرُهُ من أبْعَادٍ إنْتاجيّـةٍ فَاعِلَـةٍ، وما تُحَقِّقُهُ من إنْجازاتٍ بَاهِرَةٍ، وما تُضْفيـه على مدارِك العَقْلِ من رُؤىً جديدةٍ، فإنّنـا نُدْرِكُ أنّ مَشَاعِرَ «الاغْتِرَابِ»، وحالات «الإحْبَـاط»، ستجدُ لها دواءً نَاجِعاً عبْـر التّعامُلِ مع «العِلْمِ كثقافةٍ»، و«العِلْمِ كقِيمَـةٍ»، و«العِلْمِ كمُمَارَسَة». إنّه من الواضِحِ أنّ رِحْلـة الأُمّـة نحو «التَّوَازُنِ الجديد»، الذي نَوَّهَ به مالك بن نبيّ، قد طَالَتْ ودَخَلَتْ مَرْكَبَتُهَا اللّاهِثَـةُ فـي مُنْعطفاتٍ أشـدّ توتُّراً واضْطراباً، ومـا «مَلَفُّ الإرْهَابِ» إلاّ إفْـرازٌ شنيعٌ من إفْـرازاتِ حالة «انْعِـدَامِ التَّوَازُن»، ونتيجةٌ طبيعيّـةٌ لفُقْدَانِ القُدْرَةِ علـى التّحْليلِ السَّليمِ، والعملِ السَّديدِ، والرُّؤيةِ النّاضِجَة.

٧-٩-٢) نَحْوَ «خِطَابٍ مَعْرِفِيٍّ» فَاعِل:

مـن المُهِـمّ – إذاً – توليدُ «خِطَابٍ مَعْرِفِيٍّ» قَادِرٍ على التّصَـدِّي للتّحدّياتِ الدّاخليّة والمُتَغيِّـرَاتِ الخارجيّة، ولا يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ «رَدّ الفِعْل»، بَلْ يُبَادِرُ بالسّعي نحو التَّطْوير والتّنْميـة ليُصْبِحَ الوطنُ فَاعِلاً على المُحيط المحلـيّ والإقليميّ والدّوليّ، فعندما يَنْشَغِلُ الإنْسـانُ بـ«صِنَاعَةِ التَّقَدُّم» فإنّ مُبَرِّراتِ «مُنْطَلَقَاتِ الإرْهَـابِ» العَدَمِيّة تَضْمَحِلّ، ودَوافِعَ تلـك الانْفِعـالاتِ الهَوْجَاءِ تتلاشى، فمـن بدهيّات «التَّجْربة الإنْسانيّـة» أنّ هناك شُرُوطاً أخْلاقيّـةً وعَقْليّةً وقِيميّـةً وعمليّةً لازِمَةً للإنْسان لكي يَدْلِفَ إلـى عَالَمِ «صِناعة الحضارة والتّنْمية»، ومُوَاكَبَةِ «حركة التَّقَدُّمِ والتَّطَوُّر».

مـن ذلك المُنْطَلَـقِ، نجدُ أنّ أهميّة ذلـك «الفِكْـرِ» المُتَفاعِلِ مع «قضيّـة التّنْمية»، والمَهْمُوم بـ«مُسْتَقْبَلِ المُجْتمع»، والحريصِ على «عمليّة البِنَاء»، تَتَجَلَّى في أنّ هذا «الفِكْرَ» بطبيعتِـه يَفْرِضُ شُرُوطاً عَقْلانيّـةً وعِلْميّةً وإنْتاجيّـةً وعَوْلَميّةً هي حِصْـنٌ من الحُصُونِ الرّئيسةِ في مُحَارَبَةِ التَّطَرُّف والإرْهَاب، وتوليدِ معايير «التَّوَازُنِ الجديدِ» وتَرْسيخِ أرْكانِه. ومن ذلك المُنْطَلَقِ – أيضاً – تَفْرِضُ «ثقافةُ العِلْم» دَوْرَهَا الحتْميّ على حياة المُجْتمعات،

وذلـك علـى الرّغْم ممّا تُعَانيه من إهْمَـالٍ ثقافيٍّ، وتَجَاهُلٍ إعْلامـيٍّ، وإقْصَاءٍ اجْتماعيٍّ، فـي «الدُّول النّامية» التي ستَبْقَى تُراوِحُ مكانها فـي حالتها «النَّامية!» دون بُلُوغِ غايتها في التَّقَـدُّمِ والنُّضْجِ طالما أنّها لم تُدْرِكْ الأبْعَادَ الجوهريّةَ لـدَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في تَهْيئة «البِيئة التّنْمَويّة» القَادِرَةِ على تَنْظيمِ الفِكْرِ والغَرَائِزِ والوسائِل، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَمِ ووسائِله ومُقْتضياته.

نَسْتطيـعُ أنْ نقول – بكُلِّ ثِقَةٍ – إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة» تُرْسِي لَبِنَاتِ «التّفْكير العِلْميّ» وتَجْعَـلُ منه تَطْبيقـاً عمليّاً حياتيّـاً يَفْرِضُ على الفَرْدِ الاحْتِـكَامَ إلى العَقْـل، والتّأَمُّلَ في الأسْبَـابِ والنّتائِـج، والمزايا والعُيُوب، والإيجابيّـاتِ والسّلبيّات، والمَصَالِـحِ والمَفَاسِد، ليُزِيـلَ كُلُّ ذلك هَوْجَائيّـةَ الانْفعالاتِ والتَّحَيُّزَاتِ التي تَحْكُمُ «الخِطَـابَ الثَّقافيّ العربيّ»، وتُهَيْمِـنُ على «رُدُودِ الفِعْلِ» لدى «العَقْلِ العربيّ» الغَارِقِ في المُتناقِضات. ولا شكّ أنّنا إذا اسْتطعنا أنْ نَجْعَلَ من «ثقافةِ العِلْم» جُزْءاً جوهريّاً من «الثَّقافة الجماهيريّة»، فإنّنا نكون قـد أفْلَحْنَا في توطيدِ دعائِم «عَقْلَنَةِ المُجْتمع»، وتَأْسيسِ مُعْطيات ذلك «التّوَازُنِ الجديدِ» الوَاعِدِ بالاسْتِقْرَارِ والازْدِهَارِ والأَمْنِ الحقيقيّ بأنْواعِه.

لا ريب في أنّ «الطّبيعة البشريّة» تَسْعَى إلى إثْبَاتِ الذَّات، وتَكْريسِ القِيمَةِ الشّخْصيّة، وتَحْقيقِ المَصْلحة الخاصّة والعامّة، وتوفيرِ الرِّضا الحياتيّ؛ ولذا فإنّها ستتخلَّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من ذلك الخَوَاءِ النّفْسيّ والتِّيهِ الفِكْريّ والاغْتِرَابِ المَعْرفيّ عندما يَحْتَفِي «المُجْتمعُ» وأفْـرَادُهُ بالقِيَمِ الإنْتاجيّة والمعاني العِلْميّة والانْطلاقاتِ التّقنيّة والمُكْتسباتِ اليوميّة على الصّعِيدَيْـن المادّيّ والمَعْنويّ، وبطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ لمِثْلِ ذلك الحال أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في مُجْتمعٍ تَبَوَّأَتْ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مَوْقِعَهَا الصّحيح، وتَغَلْغَلَتْ في أنْسِجَتِهِ وخلاياه.

إنّه لا يُمْكِنُ تَخَيُّلُ «إسْتراتيجيّةٍ» تَطْمَحُ إلى مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَاب» دون أنْ تَسْتَنِدَ إلـى «بِنْيَةٍ تَحْتيّـةٍ» تَسْتطيعُ أنْ تَتَحَمَّـلَ الضُّغُوطَ الجَمّـةَ النّاجِمَةَ عن «تَدَاخُـلِ الأَمْكِنَة»، وتَشَابُكِ المصالِح، وهَيْمَنَةِ الأقْوياء، وشَرَاسَةِ «العَوْلَمَة»، واخْتِزَالِ الزَّمن، وآنيّةِ الاتِّصال، والتّأَثُّرِ المُبَاشِرِ بمضامين المَعْلُومَة؛ وفي زمن «العلوم والتّقنية» فإنّ تلك «البِنْيَةَ التَّحْتيّة»

الصّلْدَةَ لا يُمْكِنُ إلاّ أنْ تكون من جِنْسِ عَصْرِها، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع طبيعة زمنِها. ومـن هنا كانتْ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورةُ أنْ تُصْبِحَ جُزْءاً جوهريّاً ليس فقط من «مَلَفِّ مُكَافَحَةِ الإرْهَابِ» أو برامِج «تَعْزيزِ الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه ومضامينِه، ولكن يَنْبَغِي أنْ تكون جُزْءاً حيويّاً من «الرُّؤية الشَّامِلَةِ» لأيِّ اسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ أو إعْلاميّةٍ أو تَعْليميّةٍ أو بَحْثيّـةٍ أو تَنْمَويّةٍ، وذلـك – بطبيعة الحال – إذا افْتَرَضْنَا أنّ هذه «الاسْتراتيجيّات» تَطْمَحُ إلـى أنْ تتفاعل مع عَصْرِهَا، وتُوقِـظَ أُمّتَهَا، وتَغْرِسَ «أَخْلاقيَّاتِ العمـل»، وجِدّيّةِ الإنْتاج، وحيويّةِ التّفْكير، ومهارةِ الانْضباط، وتَوَازُنِ الرُّؤية.

عندما نُـدْرِكُ أهميّة دَوْرِ «ثقافة العِلْمِ» بصفتها مِحْـوَراً رئيساً في مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَـابِ»، وتَحْقيـقِ «التّـوَازُنِ الاجْتماعـيّ»، وتَعْزيزِ «التَّوَافُـقِ التَّنْمَويّ»، فإنّنـا سنُدْرِكُ ساعتهـا سبـب فَشَلِ الخُطَطِ التّعْليميّـة والإعْلاميّة والثّقافيّة والاجْتماعيّـة والتّنْمَويّة في «المُجْتمعـات العربيّة»؛ فهي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنيـة» بأسْلوبٍ سَطْحِيٍّ هَشٍّ لا يتجاوزُ التّنْظيرَ العامّ، أو الاكْتِسَابَ العَائِمَ للمَعْلُومَات، أو الفَهْمَ الغَائِمَ للتّطْبيقات، دون الانْخِرَاطِ فـي عمليّة «التَّأْصيل الفِكْريّ» التي تَـزْرَعُ في العَقْلِ الضَّوابِطَ اللّازِمَـةِ لمُمَارَسَةٍ رشيدةٍ، ومَسْؤوليـةٍ وَاعِيةٍ، وحركةٍ تَنْمَويّةٍ جَـادّةٍ، وحِرْصٍ صَادِقٍ على معايير «الأَصْلَح» و«الأَجْدَى» و«الأَنْفَـع» في نَسَـقٍ مُتَصَالِحٍ مع «العَصْر»، ومُتَّسِـقٍ مع مُتَطلَّباته، وفي إطَـارٍ شَامِلٍ يجدُ مُنْطَلَقَاتِـهِ في ثَوابت دينيّةٍ واجْتماعيّـةٍ وعَقْليّةٍ لا تتعارضُ مُطْلَقاً مع الانْطلاق في «عَوالِمِ العَصْرِ» بأبْعَادِهَا التّقنيّة والعِلْميّة والتّنْمَويّة.

من تلك الرُّؤى نَسْتطيعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّه إذا كان ازْدهار «الاقْتصاد» بصفته مُؤَثِّراً ماديّـاً في «التّنْميـة الاقْتصاديّة»، هو خير عِلاجٍ لاسْتِقْرَارِ المُجْتمعـات وأَمْنِهَا وتَطَوُّرِهَا، فإنّ «الثَّقافة العِلْميّة» كمُؤَثِّرٍ ثقافيٍّ في إطار «التّنْمية الشَّامِلَة» هي خيرُ عِلاجٍ لـ«المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» لتَجْعَلَ «الثَّقافة» ذات «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» تُوَطِّدُ دعائِم «الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه، وتَبُـثُّ «رُوحَ العَصْـرِ» في جَنَبَاتِ «المُجْتمـع» لتَدْفَعَ في اتِّجَاهِ حركةٍ نَشِطَـةٍ على الأصْعِدَةِ الفِكْريّـة والاقْتصاديّـة والتّعْليميّة والإنْتاجيّة والبَحْثيّة، وغيرها مـن مُقْتضياتِ «العَصْرِ» وتفاعُلاتِه.

٧-١٠) «الثّقافة العِلْميّة»: القِيَم والمعايير:

لكـي تَتَحَقَّـقَ «الفَاعِليّـةُ الاجْتماعيّةُ» في مضاميـن «مَفْهُوم الثَّقافـة العِلْميّة»، فإنّه مـن المُهِـمّ التَّعامُل مـع هذا «المَفْهُوم» علـى أنّه «جَسَـدٌ» و«رُوحٌ»، حيث يَتَمَثَّـلُ «الجَسَدُ» في الأشْـكَالِ المادّيـة، ووسائِل الإنْتـاج، والمُصْطلحـاتِ العِلْميّـة، والأدواتِ التّجْريبيّة، والمَعْلُومَـاتِ الوظيفيّة، وهي ما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيـه «عَالَمَ الأشْياء»؛ بينما تَتَمَثَّلُ «الرُّوحُ» في «عَالَـمِ الأفْكَار»، وهو ما تَفْتَحُهُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» من تَأَلُّقَـاتٍ فِكْريّةٍ، ومُنْطلقاتٍ فَلْسفيّةٍ، وطُمُوحَـاتٍ بَحْثيّةٍ، وأبْعَادٍ تأمُّليّةٍ من «عَالَمِ الذرَّات» إلـى «آفاق المَجَرَّات»، وفيما يَرْتَبِطُ بهـا من مُمَارَساتٍ وقِيَمٍ ومهارات، وبذلك يُصْبِحُ مَفْهُـومُ «العِلْمُ قِيمَةٌ» مُسَانِداً ومُعَاضِداً لمَفْهُـوم «العِلْمُ مَعْرِفَةٌ». وأمّا ذلك التّكَامُلُ، بين عَالَمَيْ «الأَشْياء» و«الأَفْكَار»، فإنّه يَتَحَقَّقُ عنـد بُلُـوغِ المُجْتمع نُقْطة «التَّحَوُّلِ الكَيْفـيّ» عبْر «التّرَاكُمَاتِ الكَمِّيّـة» لمُعطيات «الثَّقافة العِلْميّـة»، وفي إطار التّفاعُلِ الجَادِّ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» ومضامينِها، ومُمارَسَةِ تَطْبيقاتها، والانْخِرَاطِ في مضاميرها.

ويُمْكِنُ حَصْرُ أهمّ ما يُنْجِزُهُ ذلك «التَّحَوُّلُ الكَيفيُّ» من قِيَمٍ ومعايير فيما يلي:

- المُلاحَظَةُ المُحَايدَةُ في التَّعَامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا.
- التَّواضُعُ المَعْرفيُّ والتَّعلُّمُ بالمُمَارَسَة.
- الأمانةُ العِلْميّة، والموضوعيّة، والاسْتِقْلاليّة، وإدْراكُ أنّ رأي الأنْدَادِ والنُّظَرَاءِ ضروريٌّ ومُجْدٍ في الوصولِ إلى الحقائِق.
- تَقْديرُ الإنْتاجيّة واحْتِرَامُ الكفاءَة، وإعْطَاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وعدمُ بَخْسِ النّاس إسْهاماتِهم الفِكْريّة والعِلْميّة والحياتيّة.
- الدِّقّةُ العمليّة، والانْضِبَاطُ المَنْهَجِيّ.
- أخْلاقيّاتُ العمل، والحِرْصُ على الإتْقَان.
- تَطْويـرُ «ثقافة السُّؤال»، وتَعْزيزُ قُـدْرَاتِ التّحْليلِ ومهـاراتِ «التّفْكير العِلْميّ»، وغَرْسُ بُذُورِ «الإدارة العِلْميّة».

- تَرْسيخُ القناعة بأنّ «المِصْداقيّةَ» مُرْتَبِطَةٌ بالقَبُولِ الجماعيّ للأفْكَارِ والنّتائِج.
- دَعْمُ طُرُقِ «العمل الجماعيّ»، وتَرْسيخُ مفاهيم «العَدَالَة الاجْتماعيّة» و«التَّعاون» و«المَسْؤوليّـة» عبْر أُطُرِ «التَّكَامُـلِ البُنْيويّ» و«التَّرَابُطِ العُضْـويّ» بين مُخْتلف مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع وشرائحِه.
- بَثُّ رُوحِ المُبَادَرَةِ والابْتِكَارِ والبَحْثِ والاخْتِرَاع.
- تَعْزيزُ العَقْلانيّة، واحْتِرَامُ الحقائِـق، ونَبْذُ أساليب المُبَالَغَةِ والإيهام، وتَحْديدُ المُعْطياتِ والفَرْضيّاتِ والمَصَادِرِ بجلاءٍ عند التَّعامُلِ مع المُشْكلات.
- تَحْفيزُ الإنْتاجيّة، واحْتِرَامُ قِيمَةِ الوَقْت.
- تَأْكيـدُ أنّ الفُضُـولَ غريـزةٌ يَنْبَغِـي تَشْجيعُها، وغَرْسُ حُبِّ الاسْتِطْـلاعِ ورُوحِ المُنَافَسَةِ والتَّحدّي، وتوليدُ الدَّوَافِعِ الذّاتيّة للمُتَابَعَةِ المَعْرفيّة والتَّطْويرِ الذَّاتيّ.
- نَبْذُ الخُرَافَاتِ والدَّجَلِ والأوهامِ والعاداتِ السَّيِّئة، وتَقْليصُ مساحاتِ الانْفعالاتِ والعَواطِفِ والمُعَوِّقَاتِ الفِكْريّة.
- اضْمِحْـلالُ انْتِشَـارِ الشَّائِعَاتِ، فكُلّمـا قَوِيَ عُوُدُ «الفِكْرِ العِلمـيّ» في المُجْتمع، كانتْ الرّغْبَةُ في توليدِ الشَّائِعَاتِ أضْعف، وسُرْعَةُ انْتِشَارِهَا أقلّ.
- التَّأْكيـدُ علـى أنّ «التّنْظيرَ» ليس هدفاً في حَدِّ ذاتِـه، ولكنّه يَنْبَغِي أنْ يُؤدِّيَ إلى تَنْبـؤاتٍ قَابِلَةٍ للاخْتبـارِ والتَّحَقُّقِ، ووسائِل قَابِلَةٍ للتّفْعيـلِ والتّقْويم، وآثارٍ ذات جَدْوَى وفَاعِليّة.
- الابْتِعَـادُ عـن «أَحَاديّـة الـرّأي»، وإشَاعَـةُ «رُوحِ التّسَامُح»، وعـدمُ الخَوْضِ في القضايـا دون براهيـنٍ، والحِرْصُ على جَمْعِ المَعْلُومَـاتِ وتَقَصِّي البيانات قبل تَحْديدِ المَواقِف واتِّخَاذِ القرارات.
- تَكْريـمُ العُلماء والمُبْدعين في مجالات «العلـوم والتّقْنية»، وإبْرازُهم بصفتهم قُـدْوةً تُحْتَـذَى، ودَعْـمُ المَواهِـبِ الفَرْديّـة، وتَعْميقُ القِيمَـةِ الذّاتيّـةِ للإنْسان وكرامتِه.

- التَّغَلُّبُ على مَشَاعِرِ الانْبِهَارِ والتَّبَعِيَّةِ والإحْبَاطِ، وإشَاعَةُ رُوحِ التّفاؤل والثِّقَةِ في تَطْويرِ المُجْتمع وتَنْميته.
- تَقْليصُ مساحاتِ المَحْسُوبيّةِ والمُحَابَاةِ والوَسَاطَةِ والاعْتباراتِ الخاصّةِ كالتّمْييز غير المَشْرُوعِ بين الرَّجُلِ والمَرْأَة؛ فـ(قِيمَةُ الفَرْدِ فيما يُتْقِنُه).
- تَأْصيلُ مَفْهُوم «المُجْتمع دَائِم التَّعَلُّم» عبْر التّطْويرِ المُسْتمرِّ للمهارات، وتَنْمية المَواهِبِ إلى أقْصَى قُدْرَاتِهَا، واسْتيعابُ المُسْتَجِدَّاتِ بعَقْلانيّةٍ وفَاعليّة.
- إذْكاءُ حماسِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، والحِرْصُ على توفير شُرُوطِهَا عبْر تَنْمية الشَّغَفِ بالبَحْثِ العِلْميّ والإبْدَاعِ التّقنيّ.
- الاسْتِخْدَامُ الأمْثل للمَوارِد، والحِفَاظُ على البِيئة، ومُكَافَحَةُ التَّلَوُّث، والمُحَافَظَةُ على المُنْجزاتِ الوطنيّة.
- تَحْفيزُ مَلَكَةِ التَّساؤلِ والاسْتكشاف، وتَنْميةُ القُدْرَةِ على النّقْدِ وطَرْحِ الفَرْضيّاتِ واخْتبارِها والتّحليلِ والمُقَارَنَةِ والانْتِقَاء.
- التَّأْكيدُ على أنّ «العلوم الطَّبيعيّة» ومَنْهَجَهَا هما الطّريقةُ الفُضْلى لمُحاكَمَةِ مُخْتلف الأُمُورِ الدُّنيويّة وتَقْييمِهَا والتَّعَامُلِ معها، وأنّ هناك مَنَافِع جَمّةً تَنْجُمُ عن فَهْمِ «الطَّبيعة» ودِراسةِ قوانينها والتَّكيُّفِ مع مَنْهَجِهَا.
- الانْفِتَاحُ على الثّقافاتِ الأُخْرى واحْتِرَامُهَا، والتّعَامُلُ مع «العَوْلَمَة» بإيجابيّةٍ، فـ«الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِن»؛ فـ«النَّشَاطُ العِلْميّ» يُمَثِّلُ رَابِطَةً عامّةً ومُشْتَرَكَةً بين البشر بمُخْتلف أجْنَاسِهِمْ وأعْرَاقِهِمْ وألْوَانِهِمْ وعَقَائِدِهِمْ، فـ«المَعْرِفَةَ العِلْميّةَ» هي أكْثر أنْواع المَعْرِفَةِ التي أنْتَجَهَا «العَقْلُ البشريّ» مَوْثُوقِيّةً، كما أنّها العُنْصُرُ الأسَاسُ المَسْؤولُ عن التّقَدُّمِ والرَّفَاهِ الذي حَقّقَتْهُ البشريّةُ خلال ما يُقَارِبُ ثلاثة قُرُونٍ فقط من عُمْرِ البشريّة الضَّارِبِ في أعْمَاقِ الزَّمن.
- تَعْميقُ «البُعْد الإنْسانيّ» في التّفاعُلاتِ البشريّة من مَنْظُورِ الهُمُومِ المُشْتَرَكَة، والمصيرِ الوَاحِد، والمَصَالِحِ المُتَشَابِكَة، والمُؤثِّرَاتِ المُتَبَادَلَة.

- تَنْميـةُ أرْضيّـةٍ فِكْريّةٍ مُشْتَرَكَةٍ ومُسْتَنِـدَةٍ إلى أُسُسٍ عِلْميّـةٍ واهْتماماتٍ تَنْمَويّةٍ فـي «التّرْكيبة الاجْتماعيّة»؛ ممّا يَعْضُـدُ أبْعَادَ «التَّوَافُـقِ التّنْمَويّ» في «النَّسيجِ المُجْتمعيّ».

- تفعيـلُ بعضُ مُنْطَلَقَـاتِ «نَمُـوذَجِ التَّوَافُـقِ التّنْمَـويّ» (انْظُـرْ: الفصْـل الرّابِـع) الرَّامِيَـةِ إلـى الجَمْـعِ بيـن «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَـةِ» عبْـر إثْـرَاءِ «الثَّقافـة العِلْميَّـة المُعَاصِـرَةِ» بمُعْطيـاتِ «الحضـارة الإسْلاميّـة» وإنجازاتِهـا فـي مجـالات «العلـوم والتقنيـة» عبْر عمليّـاتِ «تحقيـق التُّرَاثِ» واسْتِيعـابِ أُصُوله، ورَبْطِهِ بالتَّطـوّراتِ المُعَاصِرَةِ و«الفِكْرِ العِلْمِيّ»، وبَلْوَرَتِهِ في «مَنْظُومَـةِ العلوم الحديثة»، وتَرْسيخِهِ فـي «تاريخ العلوم»، وتَعْميقِهِ في «فَلْسَفَةِ العلـوم»، وتَأْصيلِه فـي أُسُسِ «المَنْهَـجِ العِلْمِيّ»؛ ليكون جُزْءاً مـن العمليَة التي أَطْلَـقَ عليها محمد عابـد الجابريّ اسم «امْتِلاك التُّـرَاث»، والانطلاق به إلى الآفاق المُعَاصِرَةِ، حيث يقول: (إعادةُ كِتابَةِ تاريخنا الثّقافيّ برُوحٍ نَقْديّةٍ ورُؤيةٍ عَقْلانيّةٍ تاريخانيّةٍ ضرورةً مُلِحَّـةً، ليس فقط من أجل امْتِلاكِ تُرَاثنا والتّحَرُّرِ من ثِقَلِ حُضُورِه، بَلْ أيضاً من أجل إعْدَادِ التُّرْبة الصّالِحَة الضّروريّة لاسْتِنْبَاتِ أُسُسِ التّقَدُّمِ والتَّطَوُّرِ في فِكْرِنَا وثقافتِنا المُعاصِرَة، الشَّرْط الضّروري لتَأْصيل «المُعَاصَـرَةِ» فينـا، أَعْنـي تَحْويلها من مُعَاصَـرَةٍ قَائِمَـةٍ على التَّبَعِيّـةِ والنَّقْلِ والاسْتِنْسَاخِ إلى مُعَاصَرَةٍ قَائِمَةٍ على المُوَاكَبَةِ والمُسَاهَمَةِ إنْتاجاً وإبْداعاً)[1].

- تَعْميـقُ الإيمـان بالخَالِقِ عزَّ وجلَّ عبْـر مَعْرفة أسْرَارِ «الطَّبيعـة»، والإبْداعاتِ الكَونيّـة، والتّنْظيـم المُذْهِـلِ فـي «الأَنْفُسِ والآفَـاق»؛ وفي هذا الإطـار، تقومُ الدِّراسـاتُ المُرْتَبِطَةُ بمجال «الإعْجَازِ العِلْميّ في القُـرآن والسُّنّة» بدَوْرٍ مُهِمٍّ فـي المُجْتمعـات العربيّة والإسْلاميّة، كما أنّ لها دَوْرَهَـا البَارِزَ على «الصَّعيدِ الدَّعَوِيّ» في زمن هَيْمَنَةِ «الفِكْرِ العِلْميّ».

٧-١١) «الثّقافة العِلْميّة»: المُعَوِّقات:

تَتَحَكَّمُ في مسار «الثَّقافة العِلْميّة» وتطوُّرها مَجْمُوعَةٌ من المُعَوِّقَاتِ التي تتفاوتُ في درجتِهـا من مُجْتمعٍ إلى آخَـر، إلاّ أنّها تَبْقَى مُحَافِظَةً على ملامحِهـا الأساس التي يُمْكِنُ إيجازُها فيما يلي:

١) تَصْطَـدِمُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» فـي «المُجْتمعات العربيّـة» بتفشِّي «الأُمِّيَّة» فيهـا[١٥،٩٥]، فمـن البدهيّ أنّ مساعـي تَقْليص «الأُمِّيَّـة العِلْميّـة» تَعْتَمِدُ - في المقـام الأوّل- على التَّغَلُّبِ على مُشْكلة «الأُمِّيَّـة الأَبْجَدِيّة». أمّا تَدَنِّي المُسْتوى التّعْليمـيّ، ومُشْـكلاتُ الفَقْـرِ والبَطَالَـة، وتَدَهْـوُرُ الخِدْمَـات، وتَوَتُّـرُ الأجْواءِ السّياسيّة؛ فكُلُّها سَلبيّاتٌ تَصُبُّ في تضاؤلِ اهْتمام المُواطِن بالقضايا العامّة، ومن أبْرز الضّحايا في ظِلِّ هذه الظُّرُوفِ هي «الثَّقافة العِلْميّة».

٢) مـن خَصَائِص «الثَّـوْرَةِ العِلْميّة» تَشَعُّبُهَـا وتَكَاثُرُها بشَكْلٍ مُطَّـرِدٍ، وهي تتوالدُ وتَنْمُـو بمُعَـدَّلاتٍ عَاليـةٍ عبْر مجـالاتٍ جديدةٍ وتقْنيـاتٍ مُتلاحِقَةٍ، ممّـا يَجْعَلُ مُتابعتَهَـا أمْـراً مُسْتَعْصِياً على أصْحَـابِ التّخصُّصات العِلْميّـة أنْفسهم، فما بالـك بغيرهم مـن أصْحَـابِ التّخصُّصـات الأُخْـرى ذات الطّبائِـعِ المُغَايِرَةِ والاهْتِماماتِ المُخْتلفة؟.

من ذلك المُنْطَلَقِ، فإنّ مُهِمّةَ «الثَّقافة العِلْميّة»، في تَقْليصِ «الفَجْوَةِ» بين أصْحَابِ التّخصُّصات العِلْميّة أنْفسهم من ناحيةٍ، وبين أصْحَابِ التّخصُّصات العِلْميّة و«الجُمْهُورِ» بشَكْلٍ عامٍّ من ناحيةٍ أُخْرى، تَزْدادُ صُعُوبَةً إلاّ أنّ تلك الحقيقة - أيضاً - تَجْعَلُ مُهِمَّتَهَا أكْثر ضَرورةً وإلْحَاحاً في وَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَةِ»؛ لأنّ معايير التّقَدُّمِ والتّطَوُّرِ في «المُجْتمعات الحديثة» مُرْتَبِطَةٌ بمدى اسْتيعابِ أفْرَادِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، واسْتجابتِهم لها، وكفاءتِهم في التّفاعُلِ معها على طريـق تَحْقيق مُواصَفَاتِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة». لقد أوضح تشارلز سنو[٣٢] أنّه لا يُوجَـدُ حَلٌّ كَامِلٌ لهـذه المُعْضِلَة، فـ«رَجُلُ النّهْضَـة» (Renaissance man)، أو

«الرَّجُلُ المَوْسُوعِيّ»، الـذي كان يُحِيطُ بكُلِّ العلوم الأدبيّة والعِلْميّة والفَلْسَفيّة، لم يَعُدْ له مكانٌ في عَصْرِ «انْفِجَارِ المَعْلُومَات»، ولكن هذا لا يَعْنِي عدم الاهْتمام بتَحْقيق «حَدٍّ أَدْنَى» من «الوَعْي العِلْميّ» بين الشَّرَائِحِ المُخْتلفة، وإنْجاز درجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ من المُشَارَكَةِ والتّفاعُلِ بين مُخْتلف فِئَاتِ المُجْتمع تَضْمَنُ «بِنْيَةً تحْتيّةً ثقافيّةً» دَاعِمَةً لـ«الحركة العِلْميّة»، ومُسَانِدَةً للنّشاطِ التّقنيّ.

٣) تُغَطِّـي مُهِمَّـةُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» مساحـاتٍ وَاسِعَـةً مـن المُجْتمـع وشَرَائِحِه المُتَنَوِّعَـة؛ فهـي قضيّـةٌ جَامِعَـةٌ شَامِلَةٌ تَبْدَأُ مـن المنْزل في سنـوات التَّكْوين الأولـى، عُبُوراً بالمراحِـل والمُؤسَّسَـات التّعْليميّة المُخْتلفة، ومُـرُوراً بمُخْتلف التّفاعُـلات الاجْتماعيّة والفِكْريّة والفعّاليّـات الحياتيّة والثّقافيّة، والْتِحاماً مع كُلِّ الوَسَائِطِ المُتَعَدِّدَةِ والمُتَجَدِّدَةِ في «دُنْيَا الإعْلام»، و«عَالَم الاتِّصالات». وفي هذا السِّياق، نجدُ أنّ «تَقْرير التّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢م» يُولِي هذا الجَانِـبَ تَرْكيزاً خاصّاً، حيث يَنُصُّ على أنّـه: (تتوقَّفُ قِيمَةُ المَعْرِفَة لأغْرَاضِ التّنْميـة على مدى تَطْبيقِهَا بفعّاليّةٍ، لذلك يَتَطَلَّـبُ السّعي لإقامة مُجْتمعٍ يقومُ على المَعْرِفَة وَضْعَ اسْتراتيجيّاتٍ «فوق – قطاعيّةٍ» تُحَقِّقُ التّكَامُل بين اسْتيعابِ المَعْرِفَـةِ واكْتسابِهـا ونَشْرِهَا)[١٥]. وهكـذا يَتّضِحُ أنّ تَفْعيـلَ «الثَّقافة العِلْميّة» مَنُـوطٌ بجِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْل التَّعْليم والإعْـلام والمَنْظُومَاتِ المَدَنِيّة ومُؤسَّسَاتِ القطـاع الخاصّ، ممّا يَنْتُجُ عنـه مُعَوِّقاتٌ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ من التّنْسيق والتّخْطيط والتّكَامُل والتّنْفيذ والمُتَابَعَة.

٤) تَكْتَنِـفُ أنْشِطَـةُ «تَعْزيـز العلوم وتَرْويجها» فـي «المُجْتمعات النّاميـة» مَجْمُوعَةٌ مـن المُعَوِّقَاتِ الفنيّة والتّنْظيميّة والإداريّة والتّمْويليّـة المُرْتَبِطَةِ بتَفْعيل برامِج «الإعْلام العِلْميّ»، ومن أبْرز العَقَبَاتِ في هذا الشَّأْنِ «نُدْرَةُ الكَوادِر البشريّة» التي تَجْمَعُ بين الكفـاءَةِ العِلْميّة والتَّمَرُّسِ الإعْلاميّ، والقَادِرَةِ على طَرْحِ موضوعات «الثَّقافة العِلْميّة» وصِيَاغَةِ أفْكَارِهَا وتَنْفيذِ برامِجها بطريقةٍ شَائِقَةٍ وفَعَّالَة.

٥) عُـزُوفُ أصْحَـابِ التّخصُّصـات العِلْميّـة عـن عمليّـة «التَّواصُـلِ الجماهيريّ» والمُشَارَكَـةِ في نَشْـرِ «الثَّقافـة العِلْميّة»، ومَيْلُهُـمْ إلى قَصْـرِ اهْتماماتِهم على الجَوانِبِ البَحْثيّـة أو التّعْليميّة أو التّدْريبيّة. وسَواءٌ كان هذا العُزُوفُ نَاجِماً عن اسْتِعْـلاءٍ أو عـدم قُـدْرَةٍ أو قُصُورٍ في فَهْمِ طبيعة هذا النَّـوْعِ من الجُهُودِ ومدى أهميّتـه، فإنّ الوَضْعَ - بشَكْلٍ عامٍّ - يَتَطَلَّبُ المُوَاجَهَةَ الواقعيّة والاهْتِمامَ الجَادَّ لاسْتِقْطَـابِ الكفـاءاتِ والمَواهِـبِ - مـن بين أصْحَـابِ التّخصُّصـات العِلْميّة - القَـادِرَةِ علـى الإسْهَـامِ فـي مجالات «الثَّقافـة العِلْميّـة» المُخْتلفـة. إنّ هذه المُفَارَقَةَ المُحْزِنَةَ تَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤالَ الاسْتِنْكَارِيّ الذي طَرَحَهُ نورمان كامبل (Norman R. Campbell) عندما قال: (إنّ رِجَالَ العلوم يَشْكُون من القُصُورِ فـي اتِّسَاعِ اسْتِحْسَانِ المَعْرِفَةِ العِلْميّة بين النَّاس، ولكن ماذا يَتَوَقَّعُونَ إذا كانوا فقط يُقَدِّمُونَ للعَالَم العِظَامَ الجَافّةَ للمَعْرِفَةِ التي غَادَرَتْهَا «رُوحُ التَّنَفُّس»؟)[٩٣].

لا بُـدَّ - إذاً - أنْ يُـدْرِكَ المُشْتَغِلُـونَ بالتّخصُّصـاتِ العِلْميّة والتّقنيّـة، أنّ واجبهم يَقْتَضِي التَّوَسُّعَ في «النَّشَاطِ العِلْميّ» على مُسْتَوَيَيْن:

١) المُسْتوى الرَّأْسيّ: ويَتَمَثَّلُ في التّعَمُّقِ في تخصُّصاتِهم وتَطْويرِ مجالاتِهم.

٢) المُسْتـوى الأفقـيّ: ويَتَمَثَّـلُ فـي رَبْطِ هـذه التّخصُّصات بالمُجْتمـع، وتَبْسيطِ علومِهـم، وطَرْحِ قضاياهم واهْتماماتِهم للجُمْهُور، ومَنْحِهَا «رُوح التَّنَفُّس» التي أشار إليها نورمان كامبل.

وفي هذا الصَّدَدِ يقول جلين سيبورج[٤٤]: (إنّ الجامعات يجب أنْ تُؤَدِّي مُهمّةً أبْعد، فهـي يَنْبَغِي لها أنْ تتجاوز الوَاجِبَ المَحْـدُودَ بتَقْديم العِلْمِ المِهْنيّ للعُلماء لتتولَّى مُعَالَجَةَ مُشْكلة تَعْليم المُواطنين وتَهْيئتهم لـ«عَصْرِ العِلْم»)، ويُؤَكِّدُ جلين سيبورج أنّ: (الحال الآن أكْثر من أيِّ حالٍ مضى يَفْرِضُ علينا أنْ نكون جَاهِزين لاسْتِخْدَامِ كُلِّ الوَسَائِلِ والوَسَائِطِ المُتَاحَةِ لنا لرَفْعِ المُسْتوى العامّ من الإدْرَاكِ العِلْميّ في الوطن).

٧-١٢) «الثّقافة العِلْميّة»: العَامِلُ المُهَيْمِنُ على شُرُوطِ التّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفة»:

لقد أَصْبَحَ الرِّهَانُ اليوم هو على تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتَطْويره، ولكن لن يَتِمَّ ذلك اعْتِبَاطاً أو ارْتِجَالاً أو بحركات بَهْلوانيّةٍ دِعائيّةٍ، فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُوَاصَفَاتٌ تُؤَهِّلُ لهذه التَّحَوُّلات؛ ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجَهَا قبْل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَفَّرَ مُنَاخُهَا.

هذه الحقيقةُ الحَاسِمَةُ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ على شُرُوطِ التَّأهيل لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» (انظر: الفَصْلَيْن السّادس والثّامن)، وأمّا العملُ نحو تَحْقيقِ هذه الشُّرُوطِ فيجب أنْ يَكْتَسِبَ جِدِّيَّةً في الطَّرْح، وعُمْقاً في الدَّلالاتِ، وفَهْماً لطبيعةِ الإشْكَاليّة، وقد أَجْمَلْنَا[٧٨] هذه الشُّرُوطَ في أرْبعة شُرُوطٍ، وهي:

١) الشَّرْطُ المَعْرِفيّ.
٢) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ.
٣) الشَّرْطُ الثَّقافيّ.
٤) الشَّرْطُ اللُّغويّ.

إزاء هذه الشُّرُوطِ اللازِمَةِ للتّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَسْأَلَ إنْ كان هناك عَامِلٌ فَاعِلٌ يُهَيْمِنُ على تلك الشُّرُوطِ، ويَضْمَنُ تَحَقُّقَهَا؟. وبالتّأَمُّلِ الدّقيقِ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي ذلك «العَامِلُ المُهَيْمِنُ»، حيث أنّها:

- هي القَادِرَةُ على تَأْسيس «الشَّرْط المَعْرِفيّ» وتَنْميته، وتوليدِ الحماس له، وهي التي تُرْسِي مُقْتضياتِ «إدارة المَعْرِفَة»؛ بمَعْنَى أنّ ما تَمْتَلِكُهُ المُؤَسَّسَاتُ من مَعْرِفَةٍ يجب أنْ يُوَثَّقَ، ثمّ يُنْتَجَ، ثمّ يُعَمَّمَ، ليُسْتَغَلَّ في مُخْتلفِ برامِج الإصْلاح والتّطوير والتّطبيق والإنْتاج في عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ سَلِسَةٍ تَعْضُدُ بها المُؤَسَّسَاتُ بعْضها بعْضاً، وهذا يَقَعُ في صُلْبِ ما تُرَسِّخُهُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» من شُرُوطِ «التَّوَاصُلِ العِلْمِيّ» و«التَّرَاكُمِ المَعْرِفيّ» و«الشَّفَافيَةِ الكَامِلَة» وتَقْديرِ قِيمَةِ «العمل الجماعيّ»، وذلك بمَنْأًى عن النَّسَقِ المَعْرُوفِ في العَالَمِ العربيّ حيث يَحْتَفِظُ كُلٌّ بما لديه، و«كُلٌّ يُغَنِّي على ليلاه».

- هـي القـادِرَةُ علـى تَحْقيـقِ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ» عبْـر الانْتِشَـارِ المُجْتمعيّ لـ«المَعْرِفَـةِ المُعَاصِرَةِ» فهي الأداةُ الفَعَّالَةُ لتَحْقيقِ امْتداداتِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» - أفقيّـاً ورأْسيّـاً - للوصـول إلـى «العُمْـقِ المُجْتمعـيّ»؛ لتكـون بذلـك بمَثَابَةِ المَرْكَبَـةِ القَـادِرَةِ على توصيـلِ حُمُولَتِهَـا العِلْميّة بكفـاءَةٍ إلى مُخْتلـفِ مَواقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.

- أمّـا «الشَّرْطُ الثَّقافيّ»، فإنّه يَفْقِدُ فَاعِليّته إذا لـم تَتَأَصَّلْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» في ثنايـاه وطيّاتِـه لأنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو «حالةٌ مُجْتمعيّـةٌ» لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندمـا تتوافرُ شُرُوطُ «مُنَـاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ؛ فقضيّـةُ «توطين التّقنية» - على سبيـل المِثال - تُزَاوِحُ مكانها في العَالَمِ العربـيّ؛ لأنّها تَوَقَّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ مـن أشْكَالِهَا وهـو «عمليّةُ الاسْتِيـرَادِ» والاسْتِهْـلاكِ، ولم تَسْتَوْعِـبْ «التَّجْرِبة العربيّـة» طبيعة هذه القضيّة التي يرى أرغيري إيمانويل أنّها عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِـل: «مَرْحَلَـةُ الاسْتِيـرَادِ»، و«مَرْحَلَةُ الاسْتِيعَـابِ»، ومن ثـمّ «مَرْحَلَةُ خَلْقِ التِّكنولوجيا» وهي مَرْحَلَةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ: (مَرْحَلَةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ علـى الصَّعيدَيْن الاجتماعيّ والثَّقافيّ يكونُ من الأهميّة بحيث يُشَكِّلُ في الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعِيّةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحَلَةِ الثّانية..أَيْ مَرْحَلَةِ الاسْتِيعَاب)[٢٢].

- أمّـا «الشَّرْطُ اللُّغويّ»، فإنّه يَضْرِبُ في أطْنَابِ «الثَّقافـة العِلْميّة»، ويَتَمَدّدُ على ساحاتِهـا بصُنُوفِهَا وفُرُوعِهَا وجماهيرِها المُسْتَهْدَفَةِ؛ لتكون «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هـي الحَامِلَـةُ لنَبْضِ «اللّغَـةِ الأُمّ»، فتتفاعلَ - فـي سُهُولةٍ ويُسْـرٍ - مع مُخْتلف الشَّرائِـح والقطاعات لدَمْـجِ المُجْتمع مع العَصْـرِ ومُسْتَجِدَّاتِـهِ ومُصْطَلحَاتِهِ ومفاهيمِه ومُتَغَيِّرَاتِه.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «الثَّقافةَ العِلْميّـةَ» «ثقافةٌ تَمْكِينِيّـةٌ» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ في عمليّة التّمْييـز بيـن الجيِّدِ والـرَّديء، والفَرْزِ بيـن الحَسَنِ والسَّيـئ، ورَبْطِ المُجْتمـع بعَصْرِه، وتَمْكينِـهِ مـن الفُرَصِ للانْطِلاقِ في آفـاقِ الابْتكار والتّطوير والإبْـداع؛ وهي القَادِرَةُ على

ضَبْـطِ اتِّجَاهِ «بَوْصَلَةِ الحَرَاكِ الثَّقافيّ» نحـو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة». يُمْكِنُنَا - أيضاً - أنْ نقـولَ إنّ «الثَّقافـةَ العِلْميّة» تَكْمُنُ في قَلْـبِ «الحياة المُعَاصِرَةِ» بـكُلِّ تفاعُلاتِها وأشْكَالِهَا وتداخُلاتِهـا ومُؤثِّرَاتِهَـا، ولـذا فلعـلَّ الشِّـعَارَ الأكْثـر مُوَاءَمَةً لوَاقِعِ «الأَلْفيّـة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ للتّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

إنّني أَزْعُمُ أنّني لا أَعْرِفُ قضيّةً عليها إجْمَاعٌ عامٌّ بين مُخْتلف الفِئَاتِ في «المُجْتمعات العربيّـة» مِثْل قضيّة «مَرْكزيّة الحركة العِلْميّة»، وحتميّتها في حيـاة الأُمّة، إلاّ أنّ القَنَاعَةَ بـدَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في تَعْميقِ هذه «الحركـة»، وتَطْويرِها، وتوطيدِ مُنْطلقاتِها، تَحْتَاجُ إلـى جُهُودٍ كبيرةٍ للتّأْصيلِ والتّعْزيز، كما أنّ أنْصَارَ هـذا التَّوَجُّهِ قَلائِلٌ على صعيد الفِعْلِ والتّخْطيطِ والانْخِرَاطِ في تَجَلِّيَاتِهِ المُخْتلفة.

وفي ضوء كُلِّ تلك الهُمُوم، من رُؤىً وأهْدافٍ ومُقَوِّماتٍ ومُعَوِّقَاتٍ، يَنْبَغِي لنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام الوَسَائِلِ القَـادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَـةِ النَّوْعِيّة» اللّازِمَةِ لنَشْـرِ «ثقافة العِلْم»، وبَـثِّ «رُوح العَصْرِ»؛ للتَّغَلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية» عبْر تَفْكيكِ «المُعْضِلَة الثَّقافيّة»، وهما - مُشْتَرِكَتَـانِ - تُمَثِّـلانِ - فـي رأْيي - الهَمَّ الأكْبر فـي مُشْكلاتِنا النَّهْضَويّـةِ، وتطلُّعاتِنا التّنْمَويّـةِ، وتفاعُلاتِنا الحياتيّة؛ ولذا فـإنّ الفَصْلَ التّالي يَهْتَمُّ بالوَسَائِـلِ الكفؤةِ القَادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَةِ النَّوْعِيّة».